إبراهيم

عليه السّلام

يقول الله تعالى:

﴿واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقًا نبيًّا﴾ (مريم آية: ٤١).

نشأ سيدنا إبراهيم بإقليم بابل وعاصر عهد الملك الجبار: النمرود وشب سيدنا إبراهيم على عين الله ورعايته، وآتاه الله رشده فى سن مبكرة ثم آتاه الله النبوة، ووصفه بأنه صدِّيق..

وصدِّيق كلمة لها جانبان: جانب الصدق، وجانب التصديق.

ولقد كان إبراهيم عليه السلام صادقًا لا يكذب..

أما جانب التصديق، فإنه الإيمان اليقينى المباشر السريع بالأخبار التى ترد عن الله سبحانه، أو عن أحد المعصومين، وهو الاعتقاد اليقينى التام فيما لا يقتضى عملاً، وتنفيذ ما يترتب على الاعتقاد من عمل فيما إذا اقتضى عملاً..

obeikandl.com

وما من ريب فى أن الاعتقاد اليقينى يتمخض حتمًا عن عمل إذا استلزم الأمر ذلك..

ولقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا أبا بكر بالصديقية، ولقد كان سيدنا أبو بكر صادقًا لا يكذب، وكان يسارع إلى تصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل ما يخبر به، وكان يسارع إلى العمل بما تقتضيه الأخبار إن كانت تقتضى عملاً.. وكان وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم لسيدنا أبى بكر بالصديقية فى مكة قبل الهجرة بمناسبة حادثة معينة هى حادثة الإسراء.

ففى يوم من الأيام رأى أبو جهل رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسًا فجاء حتى جلس إليه وقال له كالمستهزئ:

هل كان من شىء؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم.

قال: ما هو؟

قال: إنه أسرى بى الليلة.

قال: إلى أين؟

قال: إلى بيت المقدس.

قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟

قال: نعم.

قال: فلم ير أن يكذبه مخافة أن ينكر الحديث إذا دعا قومه إليه.

قال: أرأيت إن دعوت قومك تحدثهم بما حدثتنى؟.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم.

عندئذ انطلق أبوجهل إلى قريش فقال: هيا يامعشر بنى كعب بن لؤى فانتفضت إليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليها.

فقال أبو جهل: حدث قومك بما حدثتنى.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنى أسرىَ بى الليلة.
قالوا: إلى أين؟

قال: إلى بيت المقدس.

قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟

قال: نعم.

فإذا بالقوم بين مصفق، وبين واضع يده على رأسه متعجبًا..

يقول الحسن: إنه فى يوم الحديث عن الإسراء: ارتد كثير ممن كان أسلم! وذهب الناس إلى أبى بكر فقالوا له: هل لك يا أبا بكر فى صاحبك؟ إنه يزعم أن قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة.

فقال لهم أبو بكر إنكم تكذبون عليه.

فقالوا: لا، ها هو ذاك فى المسجد يحدث به الناس.

قال أبو بكر: والله لئن كان قاله: لقد صدق، فما يعجبكم من ذلك؟

فوالله ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أونهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه.

ومن يومئذ سمى أبو بكر رضى الله عنه بالصديق.

ولقد كان سيدنا إبراهيم عليه السلام صديقًا يتمثل فيه جانبا الصديقية وهما الصدق وسرعة التصديق لخبر الله تعالى.

* * *

لقد تساءلنا فى نهاية الحديث الماضى عن مظاهر الصديقية فى حياة سيدنا إبراهيم. وأول مظهر نتحدث عنه هو امتثاله عليه السلام لأمر الله فى مجابهة قومه بأن دينهم باطل وأن عبادتهم فاسدة، وأن آلهتهم مزيفة.

لقد كانوا يعبدون الأصنام. كانوا يعبدون أحجارًا ينحتونها بأيديهم ثم يسجدون لها، واتجه إبراهيم عليه السلام، أول ما اتجه، إلى أبيه، وكان حريصًا على هدايته محبًّا لصلاحه، فخاطبه قائلاً:

﴿يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئًا﴾ (مريم آية: ٤٢).

وشرح لأبيه أنه مرسل من قبل الله، وأنه يعلم عن الله ما لا يعلمه أبوه وأنه يدعو إلى الله، وأن من اتبعه فإنما يتبع الطريق الذى رسمه الله للهداية والرشد وشرح لهم أن عبادة الأصنام إنما هى اتباع لاغواء الشيطان، وسير فى طريق إبليس، فهى فى الواقع عبادة لابليس نفسه لأنه الذى زين هذا الطريق وحببه إلى نفوس الضالين.

ثم بين أن مآل العصاة أن يحل بهم عذاب الله، وأنه يخاف على أبيه أن يمسه عذاب منه. من أجل ذلك يدعوه إلى الأسلوب الربانى فى العبادة.

ولكن الالف والعادة كانا قد تمكنا من نفس أبيه، ولها منطقها الذى لا يستند إلى غير الإلف والعادة، فقال لابراهيم:

﴿أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم، لئن لم تنته لأرجمنك﴾ (مريم آية: ٤٦).

ثم أمره بأن يذهب عنه ويفارقه إذا لم يكف عن دعوته تلك.

وما كان إبراهيم عليه السلام أحمق أو سفيهًا، وما كان عاقًّا لأبيه ومن أجل ما فطر عليه من هذه الصفات الكريمة كانت إجابته لأبيه:

سلام عليك: أى أننى بالنسبة لك سلام تام فلن أسىء إليك، ولن أحاول القيام بما تكره، بل بالعكس من ذلك سأستغفر لك ربى، عسى أن يغفر لك ويتوب عليك، فإنه سبحانه كان بى حفيًّا: أى لطيفًا، وهو سبحانه دائمًا لطيف بعباده الذين يحققون العبودية له لا لغيره.

على أننى سوف أعتزلكم فى عبادتكم، ولن أدنس جبهتى بالسجود لصنم وإنما سأتجه بعبادتى ودعائى إلى الله وحده، وأرجو أن أنجو من عذابه فلن أكون بدعاء ربى شقيًّا.

واستمر إبراهيم يستغفر لأبيه برًّا به، وشفقة عليه فلما تبين له أنه عدو الله كف عن الاستغفار وتبرأ منه..

روى الإمام البخارى بسنده، عن أبى هريرة رضى الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم:

ألم أقل لك لا تعصنى؟

فيقول (له) أبوه: فاليوم لا أعصيك.

فيقول إبراهيم يارب إنك وعدتنى أن لا تخزينى يوم يبعثون، فأى خزى أخزى من أبى الأبعد؟

فيقول الله: إنى حرّمت الجنة على الكافرين.

ثم يقال يا إبراهيم ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذبح متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار.

لم يستسلم إبراهيم إلى اليأس حين رأى موقف أبيه منه مع أنه أقرب

الناس إليه، وما من شك فى أن أصحاب الهمم العالية لا يستسلمون إلى اليأس، فإذا ما سدت فى وجوههم بعض النوافذ حاولوا أن يعالجوا نوافذ أخرى علهم ينجحون فى فتحها بل إن العقبات تزيد أرباب الهمم العالية عزمًا على عزم ونشاطًا مضاعفًا.

اتجه سيدنا إبراهيم إلى قومه بعد أن لم ينجح مع أبيه، اتجه إلى قومه قائلًا:

﴿اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ (العنكبوت آية: ١٦).

ثم أخذ يبين لهم أن الذى يعبدونه إنما هو أصنام نحتوها بأيديهم، وأنهم حينما يسمونها آلهة، فإنهم يكذبون على أنفسهم، وعلى الحق. فهؤلاء الذين تعبدونهم من دون الله لا يملكون لكم رزقًا فابتغوا عند الله، الرزق، واعبدوه وحده لا شريك له، واشكروا له إحسانه فإنكم راجعون إليه لا محالة.

وإذا كذبتم فإن ذلك له أمثلة سبقتكم: إن أمما من السابقين كذبوا رسلهم فأتاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ويندمون حيث لا ينفعهم الندم..

ثم ما شأن هذه الأصنام؟

هل يسمعونكم إذ تدعون؟

هل ينفعونكم أو يضرون؟

بل أيملكون لأنفسهم نفعًا، أو يمنعون عن أنفسهم ضرًّا؟

إننى برىء منهم جميعًا، إنهم عدو لى إلا رب العالمين، إنه هو الذى خلقنى، وهو الذى يهدينى سواء السبيل..

ثم إنه هو الذى يرزقنى فيطعمنى ويسقين، وهو الذى يملك الشفاء، وإذا مرضت فهو يشفين.

وهو الذى بيده أمر الإنسان: إماتة واحياء، وهو الذى يأمر باتباع سبيله.

أطمع أن يغفر لى خطيئتى.

﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾.

وما كان جواب قومه إلا أن قالوا:

﴿وجدنا آباءنا لها عابدين﴾.

لقد أقروا باجابتهم هذه أن أصنامهم لا تسمع لمن يدعوها ولا تنفع من عبدها، ولا تضر من كفر بها أو اعتدى عليها، ولم يأخذهم الخجل حينما اعترفوا بأن الحامل لهم على عبادتها مجرد الاقتداء باسلافهم الذين سبقوهم فى الضلال والانحراف.

والواقع أن التقليد، والعادة، والالف هى العقبات الصعبة فى طريق

المصلحين وقد كان ذلك منذ أن بدأ المصلحون دعوتهم، ولقد كان بعض ما صادف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دعواته، لقد قالوا له هم أيضا:

﴿حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا..﴾

ويرد القرآن عليهم فى صورة لاذعة فيقول:

﴿أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئًا ولا يهتدون﴾ (المائدة آية: ١٠٤).

إن النفوس إذا ألفت شيئًا فترة طويلة من الزمن لم يكن من السهل انصرافها عنه..

والإلف - لا العقل ولا المنطق - هو الذى يعرقل دائمًا المصلحين خلال التاريخ، وإن الذى يزلزل الإلف إنما هو شعور الإنسان بالمسئولية.

ومن أجل ذلك حاول كل الأنبياء أن يشعروا الإنسان بأنه مفكر وأنه مسئول عن كل تصرفاته ومحاسب على أعماله وكل إنسان بما كسب رهين.

جاء الأمر الإلهى إلى إبراهيم عليه السلام أن يحطم الأصنام.

وأخذ إبراهيم ينتظر إتاحة الفرصة التى تمكنه من تنفيذ الأمر الإلهى، وما كان تنفيذ هذا الأمر بالشىء الهين، فإنه لو بدأ فى تحطيمها على مرأى منهم لحطموه قبل أن يحطمها فلا مناص من انتظار الفرصة..

ولقد كان يعلم أن هذه الفرصة وشيكة الحدوث، فقد كان لهم عيد يحتفلون به فى كل عام خارج مدينتهم وكانوا يذهبون إليه فتخلو المدينة أو تكاد، ولما جاء يوم العيد وخرجوا يلهون ويعبثون ويحتفلون، أسرع إبراهيم عليه السلام بعدته التى كان أعدها من قبل إلى قصر الأصنام فوجد عجبًا:

لقد وجد القوم قد وضعوا طعامًا أمام الأصنام قربانًا إليها، فأخذ يسخر من عقليات قومه التى صبغتها العادة وأثر فيها الإلف إلى هذا الحد يخاطب الأصنام قائلاً:

﴿ألا تأكلون؟ مالكم لا تنطقون﴾ (الصافات آية: ٩١، ٩٢).

ثم أخذ يحطمها صنمًا صنمًا، وأخذت تتهاوى تحت معوله واحدًا واحدًا حتى أصبحت حطامًا. اللهم إلا الصنم الأكبر فإنه لم يصبه بسوء وذلك لحكمة قدرها فى نفسه..

ورجع القوم من عيدهم ورأوا ما حل بالأصنام وتساءلوا:

﴿من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين!﴾ (الأنبياء آية: ٥٩).

وجاء الرد من البعض:

﴿سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم﴾ (الأنبياء آية: ٦٠).

وأسرعوا إلى إبراهيم فى غضب وغيظ، وأتوا به فى الساحة الكبرى.

وكانت قد امتلأت بالناس، وهذا ما كان يتوقعه، وبوجود إبراهيم تكون المناقشة علنية، وفى أكبر جمع ممكن.. وسألوه:

﴿أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم﴾؟ (الأنبياء: ٦٢).

وبلغت سخريته بهم قمتها فقال:

بل فعله الصنم الأكبر الذى تبقى سالما، لقد ثار غضبه عليهم، فقام إليهم وفتك بهم فلم يدع منهم إلها إلا حطمه، واسألوهم عن السر فهم به أعلم، لأنهم هم الذين نالهم الأذى، وهم يعرفون من الذى فعل بهم ذلك.. اسألوهم إن كانوا ينطقون..

وأدركت القوم عند ذلك حيرة شديدة، وعادوا إلى أنفسهم باللوم والعتاب، وجالت بارقة من التفكير المستقل الحر بأذهانهم، وأوشكوا أن يعترفوا بالحق المحض بل لقد قالوا لأنفسهم: إنكم أنتم الظالمون..

لكن سرعان ما استعاد الالف والتقليد والعادة المكانة الأولى من نفوسهم فنكسوا على رءوسهم وعادوا إلى ضلالهم، وقالوا فى انفعال وغضب:

﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾ (الأنبياء آية: ٦٥).

وكانت فرصة نفيسة أن يسأل إبراهيم هذا الجمع وهذا الملأ قائلاً فى تهكم لاذع:

﴿أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئًا ولا يضركم.. أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾؟ (الأنبياء آية: ٦٦، ٦٧).

حطم إبراهيم الأصنام تبعًا لأمر الله، فأتى به قومه على أعين الناس ليحاكموه وليشهد الناس محاكمته، فجادلهم وسخر منهم، فما كان منهم إلا أن قالوا: ﴿احرقوه وانصروا آلهتكم﴾.

لقد استقر رأيهم على إلقائه فى النار ليموت حرقًا.

ولقد روى القرآن عنهم أنهم قالوا أيضًا..

﴿ابنوا له بنيانًا فألقوه فى الجحيم﴾ (الصافات آية: ٩٧).

لقد كان الجو فى غاية من التوتر، فقد سفه إبراهيم أحلام الملأ من قومه وسخر بآلهتهم فأثار فى نفوسهم غيظًا مكبوتًا، وما أن صدر الحكم حتى حاول كل واحد أن يساهم فيه.

وما من شك فى أن التفاصيل التى يذكرها من كتبوا عن القصة لا يستند كثير منها إلى أصل موثوق به، ولكن لا بأس من أن نذكر من هذه التفاصيل، أنه حينما اجتمع الملأ الذين كفروا من قوم إبراهيم وعلى رأسهم النمرود، وأصدروا الحكم أخذوا يهيئون وسيلة التنفيذ، فحبسوه فى بيت وبنوا بنيانًا بقرية يقال لها «كوش» ثم جمعوا - كما يقول الشيخ الصاوى - صلاب الحطب وأصناف الخشب مدة شهر، حتى كان الرجل يمرض فيقول: لو عوفيت لأجمعن حطبًا لإبراهيم، وكانت المرأة تغزل

وتشترى الحطب بغزلها احتسابًا فى دينها، وكان الرجل يوصى بشراء الحطب وإلقائه فى المكان الذى ستشعل فيه النار.

فلما جمعوا ما أرادوا أشعلوا فى كل ناحية من الحطب نارًا فاشتعلت النار واشتدت حتى أنه كان الطير ليمر بها فيحترق من شدة وهجها وحرها، فلما أرادوا أن يلقوه فيها أعيتهم الحيل فى كيفية إلقائه فصنع لهم رجل من الأكراد يسمى: «هيزن» منجنيقا فعمدوا إلى إبراهيم فأخذوا يقيدونه ويكتفونه، وهو يقول - حسبما رواه العالم الثقة الإمام ابن كثير - لا إله إلا أنت سبحانك، لك الحمد ولك الملك، لا شريك لك..

ويروى الإمام البخارى بسنده عن ابن عباس أنه قال:

﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾.

قالها إبراهيم حين ألقى فى النار، وقالها محمد حين قيل له:

﴿إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل.. فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء﴾ (آل عمران آية: ١٧٣-١٧٤).

أما الشيخ الصاوى فإنه - من جانب - رأى إبراهيم صورة من صور الإخلاص لله والاستجابة له والتفانى فى طاعته وهو يوشك أن يلقى فى النار، ورأى من جانب آخر أعداء طغاة ظلمة يوشكون أن يلقوا به فى النار فأخذ يذكر الأمر فى صورة شاعرية، وذلك أنهم حينما كانوا على وشك

قذف إبراهيم عليه السلام فى النار صاحت -كما يذكر- السماء والأرض ومن فيهما من الملائكة وجميع الخلق إلا الثقلين صيحة وحدة:

أى ربنا، إبراهيم خليلك يلقى فى النار وليس فى أرضك أحد يعبدك غيره فأذن لنا فى نصرته.

فقال الله تعالى: «إنه خليلى ليس لى خليل غيره وأنا الإلٰه ليس له إلٰه غيرى.. فإن استغاث بأحدكم أو دعاه فلينصره فقد أذنت له فى ذلك، وأن لم يدع غيرى فأنا وليه وأنا أعلم به فخلوا بينى وبينه.

وماذا جرى بعد هذا؟

إنه جميل ذلك التصوير العاطفى الذى صورت به تلك اللحظة الحاسمة التى أوشك الطغاة أن يلقوا فيها بإبراهيم فى النار، فإن إبراهيم - فيما رأى هؤلاء الكاتبون - صورة للبراءة البريئة التى يوشك الغاشمون أن ينكلوا بها فى صورة بشعة إرضاء لاهوائهم، وإشباعًا لجبروتهم، وهذه الصورة على هذا الوضع تستثير دائمًا كتّاب العاطفة فيتفننون فى التصوير والعرض..

لقد كان إبراهيم عليه السلام فى هذه اللحظة محل عناية الخلائق ماعدا الثقلين، وكان على الخصوص محل عناية الملائكة، وقد استأذنوا الله فى نصرته فأذن الله لهم بشرط ألا يتدخلوا فى الأمر إلا إذا طلب إليهم إبراهيم ذلك.

وأتاه الملك الموكل بالمياه والمطر، وعرض عليه أن يطفئ النار بأمطار

من السماء وبمياه تنفجر من الأرض، ورد عليه إبراهيم بأن لا حاجة بى إليك: حسبى الله ونعم الوكيل.

وأتاه ملك الهواء وعرض عليه أن يرسل الريح عاصفة مزلزلة فتطير النار فى الهواء، فقال له إبراهيم:

لا حاجة بى إليك: حسبى الله ونعم الوكيل..

وأتاه جبريل عليه السلام يعرض عليه كثيرًا من وجوه الإنقاذ، وقال له: ألك من حاجة؟ ويرد عليه إبراهيم:

أما إليك فلا..

ويرى جبريل الموقف، ويشفق على إبراهيم، ويؤمن أن إبراهيم لو دعا ربه لاستجاب، ولكنه لا يسمع دعاء ولا يرى تضرعًا فيقول له: فاسأل ربك!

ويرد إبراهيم: حسبى من سؤالى علمه بحالى..

هذه الصورة لإبراهيم هى حقا صورة الرجل الذى ألقى بقياده تامًّا كاملًا إلى الله سبحانه، إنه الرجل الذى ينفذ ما يؤمر به من غير تردد ولا فتور، وينتهى عما ينهى عنه فى تصميم وعزم، ولا يسأل غير الله أحدًا، بل إن ثقته بعلم الله الكامل المطلق الشامل تمنعه من سؤاله، والله سبحانه وتعالى يقول فى حديث قدسى:

«من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ماأعطى السائلين..»

ولقد كان إبراهيم عليه السلام مشغولاً بذكر الله عن مسألته.. وكان إبراهيم عليه السلام مفوضًا الأمر إلى الله تفويضًا كاملاً، مسلمًا وجهه إليه إسلامًا تامًّا. ومن أجل ذلك جاء النداء الإلهى:

﴿يا نار كونى بردًا وسلاما على إبراهيم﴾.

وانظر إلى التعبير الإلهى، إنه سبحانه لم يقل: يا نار كونى بردًا على إبراهيم، ولو كان هذا هو التعبير لآذته النار ببردها، ولكنه سبحانه - وهو أحكم الحاكمين - أضاف إلى البرد السلام فكانت بردًا غير ضار، وكانت سلامًا ممتعًا..

وما من شك فى أن الله سبحانه لا يتخلى عن عباده المخلصين فى هذه اللحظات الحاسمة، وهو سبحانه الذى يقول:

﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ (الطلاق آية: ٢).

أى يجعل له مخرجًا من كل ضيق، ومن كل أزمة، ومن كل كرب، ومن كل غم، وييسر له وسائل الرزق بحيث يأتيه من حيث لا ينتظره..

لقد ألقى إبراهيم فى النار ولا يتأتى أن نحرم القارئ الكريم من التصوير اللطيف الذى رسمه أسلافنا لفترة مكث إبراهيم فى النار..

قضية إبراهيم عليه السلام هى قضية داع إلى الله، أمره سبحانه بتحطيم الأصنام فحطمها، طاعة لأمر الله، وهو فى سلوكه محب لله، متفان فيه، يجاهد بكل ما يملك فى سبيل هداية الناس إلى الله.

وهاهم أولاء الطغاة، يوثقونه كتافًا، ويلقونه فى النار، وليس له من ذنب إلا أن يقول ربى الله..

ولا يجول بخلد إنسان أن الله سبحانه يتركه دون إنقاذ، ولقد أمر الله النار أن تكون بردًا وسلامًا عليه.

هل فعل الله به غير ذلك؟

لقد أراد المفسرون للقرآن الكريم أن يشرحوا إكرام الله له فى هذا الموقف: فقالوا:

إن الملائكة تلقته تحمله فى رفق حتى وضعته على الأرض فإذا عين ماء عذب وإذا ورد أحمر، وإذا نرجس يحيط به، وأتاه جبريل بقميص من حرير الجنة وأتاه بأريكة يجلس عليها، وألبسه القميص، وأجلسه على الأريكة وجلس معه يحدثه ويؤنسه ويقول له فيما يقول:

يا إبراهيم، إن ربك يقول لك: أما علمت أن النار لا تضر أحبابى؟

ويمكث إبراهيم فى النار بضعة أيام، ويتحدث المفسرون أيضًا عن شعوره فيخبرون عنه أنه قال:

«ما كنت أيامًا قط أنعم من الأيام التى كنت فى النار»؟

ومهما يكن من شيء: فإن الله قد حفظ إبراهيم فلم تضره النار، ويتحدث الله عن أعداء الله فيقول عنهم:

﴿فأرادوا به كيدًا فجعلناهم الأخسرين﴾ (الأنبياء آية:٧٠).

ويقول سبحانه:

﴿فأرادوا به كيدًا فجعلناهم الأسفلين﴾ (الصافات: ٩٨).

لقد أرادوا أن ينتصروا فكان نصيبهم الخذلان الواضح، ولقد أرادوا الرفعة فكان عاقبة أمرهم أن اتضعوا، ولقد وطنوا أنفسهم على الغلبة فدارت عليهم الدائرة وغُلبوا..

وهكذا كانت حادثة إبراهيم تحقيقًا للوعد الأزلى بنجاة رسله وبنجاة المؤمنين.

يقول سبحانه:

﴿ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا، كذلك حقًّا علينا نُنْج المؤمنين﴾ (يونس آية: ١٠٣).

ثم ماذا كان بعد ذلك؟

إن الذى كان بعد ذلك، هو ما أخبر الله عنه بقوله:

﴿ونجيناه ولوطًا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين﴾ (الأنبياء آية: ٧١)

فلنتابع إبراهيم فى مقره الجديد.

ولكننا نقول فى ثقة كاملة، إن حادثة إبراهيم لم تمر دون أن تترك أثرًا هائلًا بين عُبَّاد الأصنام هؤلاء..

لقد رأى الناس أن رب إبراهيم حفظ إبراهيم، وأن آلهتهم لم تتمكن من حماية نفسها هى فضلًا عن حماية غيرها، وتزلزلت العقيدة فى أنفسهم، ولابد أن يكون التيار الإيمانى فى هذه البقعة قد غير اتجاهه وأخذ يستشرف إلى الوضع الصحيح.

إن حادثة إبراهيم لم تمر دون أن تترك أثرًا عميقًا، ودون أن تزلزل الشرك من جذوره، وحكمة الله فوق كل حكمة، وتدبير الله أسمى من كل تدبير.

يقول شاعرنا العربى هذا البيت من الحكمة العميقة:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبكى الله بعض الناس بالنعم

وقد أنعم الله على إبراهيم عليه السلام بمحاولة قومه أن يقتلوه حرقًا بالنار، وفى مقابل ذلك ابتلى الملك الطاغية نمرود بالملك.

لقد ابتلاه بالملك فلم يقل كما قال سليمان عليه السلام:

﴿هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم﴾ (النمل آية: ٤٠).

كلا لم يقل ذلك، وإنما كان مثله كمثل فرعون، فقد استخف نمرود قومه فأطاعوه.

أنا ربكم الأعلى.

فقالوا: سمعًا وطاعة.

ولما رأى هذا الطاغية سيدنا إبراهيم يدعو لتأليه غيره، استدعاه وسأله عن شأنه وعن ربه فقال إبراهيم:

ربي الذى يحيى ويميت.

وحاول الطاغية المغالطة، فقال:

أنا أحيى وأميت.

وفى تفسير مغالطته يقول محمد بن إسحاق:

«يعنى أنه إذا أُتى بالرجلين قد تحتم قتلهما، فإذا أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر، فكأنه قد أحيا هذا وأمات الآخر» اهـ.

وما إلى هذا قصد سيدنا إبراهيم، ورأى عليه السلام أن الاستمرار فى هذه الحجة لا طائل تحته، فإن الطاغية سيمارى ويجادل. فعدل عليه السلام عن ذلك حجة لا يتأتى للمتأله الرد عليها قال:

﴿فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب﴾! (البقرة آية: ٢٥٨).

يريد أن يقول: إن هذه الشمس التى خلقها الله من قبل أن تولد أنت، وسخرها تجرى لمستقر لها، وجعلها تشرق كل صباح من المشرق، وتغرب كل مساء فى المغرب.

إن هذه الشمس التى جعلها ربى تسير على هذا النسق، حاول أنت أن تعكس سيرها. فاجعلها تدور فى طريق عكسى بحيث تشرق مما نسميه نحن المغرب، وتغرب فيما نسميه المشرق.

أما رد الطاغية على هذا فهو ما صوره الله تعالى بقوله:

﴿فبهت الذى كفر، والله لا يهدى القوم الظالمين﴾ (البقرة آية: ٢٥٨).

وبعض الناس فى كل زمان ومكان يغزوهم الكبرياء، وتشتاق نفوسهم إلى التأله، ويصلون من ذلك إلى قليل أو كثير، وذلك إن الكبرياء تأله، والخيلاء تأله، فيعاتبهم الله لمنازعتهم إياه فى صفات الألوهية.

ولقد عاقب الله هذا الطاغية، وجعل عقابه يأتى عن طريق خلق لله ضعيف، هو الناموس.

لقد عذبه الله بالناموس، وأهلكه بالناموس، وكان مصيره مصير جميع الطغاة.

غضب من الله فى الدنيا، وعذاب أليم فى الآخرة.

* * *

منذ أن خلق الله الكون والبشر يحبون معرفة سر الحياة والموت، وكيفية إحياء الموتى، والأنبياء وهم محبون لله، وهم محبوبون من الله، يحبون دائمًا أن يعرفوا من أسرار الله ما خفى عنهم.

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول دائمًا:

﴿رب زدنى علمًا﴾.

ومن هذا القبيل - قبيل زيادة العلم والاطلاع - طلب سيدنا إبراهيم من الله أن يريه كيف يحيى الموتى، فقال مخاطبًا ربه:

﴿رب أرنى كيف تحيى الموتى﴾.

ويرد الله عليه قائلًا:

﴿أو لم تؤمن﴾

أى أو لم تؤمن بالبعث والقدرة المطلقة الشاملة؟

وكان إبراهيم عليه السلام مؤمنًا أقوى ما يكون الإيمان، بيد أن بين الإيمان والمشاهدة فارقًا ملموسًا، ومن أجل ذلك كان المثل الأعلى فى الإسلام يعبر عنه بالشهادة فيقال: **أشهد أن لا إله إلا الله.**

وأجاب إبراهيم فى سرعة سريعة: إنى مؤمن، وما أردت بالمشاهدة إلا الاطمئنان القلبى الذى يحدث عن المشاهدة، يقول الإمام ابن كثير:

وقد كان إبراهيم عليه السلام يعلم قدرة الله على إحياء الموتى علمًا

يقينيًا لا يحتمل النقيض، ولكن أحب أن يشاهد ذلك عيانًا، ويترقى من علم اليقين إلى عين اليقين، فأجابه الله إلى سؤاله وأعطاه غاية مأموله» اهـ.

لقد قال الله له:

خذ أربعة من الطير فاضممهن إليك، والقهن بحيث يأتينك إذا ناديت وتأمل أشكالها وهيئتها لئلا تلتبس عليك بعد الإحياء، أو تتوهم أنها غير ذلك، ثم اذبحها واجعلها أجزاء وفرقها على الجبال المحيطة بك، فاجعل على كل جبل منهن جزءًا، وبعد ذلك ادعهن فسيأتينك سعيًا، واعلم أن الله عزيز حكيم.

والواقع أن القرآن معنى كل العناية بإقامة الأدلة على إثبات البعث، وإحياء الموتى، وقد عالج الموضوع من زوايا متعددة وأقام عليه مختلف الأدلة ومثل له بعدة ألوان من التمثيل.

وقد سأل الجاحدون للبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلين: من الذى يحيى العظام بعد أن أصبحت بالية؟

ويرد الله سبحانه بأن الذى يحيى العظام هو الذى أنشأها أول مرة، ولقد أنشأها أول مرة من العدم، وكل موجود إنما كان عدمًا ثم وجد، فإذا كان الله ينشئ من العدم فإنه من باب أولى يعيد جمع ما تفرق وأن ذلك أسهل، ويعبر الله عن ذلك فى إيجاز بليغ جميل فيقول:

﴿قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾ (يس آية: ٧٩).

ثم أيتأتى فى الذهن أن الذى خلق السموات والأرض فى عظمتها وسعتها، وفى إبداعها وتنسيقها، لا يمكنه إعادة ما مات وإيجاد ما تفرق، مع أن ذلك أسهل من خلق السموات والأرض؟

إن الله سبحانه يخلق فى كل لحظة خلقًا جديدًا نراه ونؤمن به، وما البعث إلا ظاهرة هى أسهل من الخلق والإنشاء وما يجحد بها إلا الذين لم يتدبروا صنع الله الذى أتقن كل شىء خلقه.

كان إبراهيم عليه السلام معنيًّا بتطهير العقيدة عن الله من كل ما يحيط بها من شرك.

وما من شك فى أن عبادة الأصنام إشراك بالله سبحانه، ولا يفيد فى هذا المقام أن يقول عُبّادها:

﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾.

فإن ذلك لا ينفى أنهم يعبدونها من دون الله أو مع الله، وعبادتها من دون الله كفر بالله، وعبادتها مع الله إشراك به.

وقد يندهش بعض الناس من موقف الإنسانية فى بعض الأزمنة، وفى بعض الأمكنة من عبادة الأصنام ويتساءل:

أما كان لهؤلاء العابدين للأحجار من عقل يعقل، أو فؤاد يدرك؟

أيجوز فى أفهام الناس أن يعبدوا أحجارًا أو معادن صنعوها لا عقل لها ولا شعور فيها؟

أيتأتى أن تهوى الإنسانية إلى هذا المستوى من البلاهه؟

وهنا نأتى إلى تفسير هذه العقيدة فى بعض الأقاليم التى نشأت بها:

إن الكواكب فى السماء تشرق متلألئة وضاءة ترتاح النفس إلى ضوئها، وتستريح إلى لمعانها.

والنور يرسل شعاعه الفضى إلى الأرض فيبدد الظلمات، ويكون هاديًا ودليلاً، ويفتن الشعراء والعاطفيين بنوره الخافت، وأضوائه، ثم هاهى ذى الشمس ترسل شعاعها الذهبى حينما تشرق، وترسل شعاعها الذهبى فى ساعة الأصيل وهى فيما بين ذلك تتلألأ فى قوة هائلة، وتتوهج فى جبروت طاغ، وفى كل لحظاتها تبعث الدفء والحياة فى جميع أرجاء المعمورة.

كانت هذه الكواكب على مر الزمن مثار جاذبية وتأمل، ثم مثار حب وافتتان، ثم مثار إكبار وتقديس، وانتهت الإنسانية فى أمرها إلى العبادة.

والإنسان دائمًا يحب أن يكون معه أثر من آثار معبوده، وصورة له أو تمثال له، صغير أو كبير.

وصُوِّرت الكواكب، واتُّخذت لها التماثيل، وكانت الأصنام على شكل

الهياكل العلوية على ما يقول الشهر ستانى، وكانوا يعبدونها باعتبارها رمزًا للهياكل العلوية. وهذه الهياكل العلوية التى هى النجوم والكواكب ما كانت فى أذهانهم إلا مقرا للأرواح، ومجالاً للعقول الروحانية.

ولقد كانوا يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى.

فأصل عبادة الأصنام ناشئ - فى بعض أسبابه - عن عبادة الكواكب.

أما عبادة الكواكب فلأنها مقر الأرواح العالية التى هى - فى عرفهم - الملائكة. فقد كانوا يعتبرون أنفسهم أحقر من أن يتجهوا مباشرة إلى الخالق العظيم بالعبادة فتوسلوا إليه بملائكته ليشفعوا لهم عنده فى القرب، وفى الرزق، وفى السلامة من الكوارث، وفى العافية على وجه العموم.

ولقد بين الإسلام أن الله أقرب إلى الإنسان ممن يكون بجواره، وأنه مع الإنسان أينما كان، وأنه هو وحده الذى يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء.

ولقد صادف سيدنا إبراهيم هذا الفريق أيضًا من عبدة الكواكب وكان له معهم موقف محدد.

لقد صادف سيدنا إبراهيم ألوانًا من الانحرافات فى عقيدة الألوهية فقد صادف أولاً عبدة الأصنام، ثم صادف نموذجًا من المدّعين للألوهية يزعم أنه يحيى ويميت، ولقد أبان سيدنا إبراهيم لكل من هذين الفريقين

درجة الحق فى عقيدة الألوهية.

ثم صادف فريقًا ثالثًا يعبد الكواكب، فى أسلوب سافر ودون وساطة، من أصنام وأوثان.

وكانت العقيدة فى الكواكب متغلغلة فى نفوسهم، بحيث لا يتأتى مجابهتها، بأسلوب مباشر من الرفض يبدأ به الإنسان فى أول كلامه، وكان لابد من استعمال الافتراض، ومن إفساح المجال للأخذ والرد فى الموضوع.

وافترض إبراهيم عليه السلام افتراضًا لا يؤمن به ولا يتمشى مع الحقيقة، افترضه ليقود الخصم إلى الصدق الصادق والحق الواضح.

لقد جلس مع هؤلاء الذين يعبدون الكواكب، وربما كانت الجلسة فى معبدهم الذى يجتمعون فيه إذا أمسى المساء يتطلعون إلى الكواكب فى صورة شاعرية وفى نوع من التأمل فى هذه الكائنات الظاهرة الخفية، الواضحة المجهولة، التى يرونها مضيئة لامعة ولكنها مقنعة لاتبدى أسرارها، ولاتعلن عن خفاياها، وأمسى المساء، وبدأت النجوم تظهر الواحدة تلو الأخرى.

وما أن أشرق أول كوكب حتى أشار إليه إبراهيم عليه السلام مفترضًا أنه الله، فهش الجميع وبشوا، وبدأ على وجوههم الأنس به والمودة له: إنهم يعرفونه رجلًا ناضجًا، حكيمًا متبصرًا، وها هو ذا يعترف بآلهتهم.

وأخذوا يتطلعون إلى الكوكب فى مسيره، ثم فى انحداره إلى الغروب، ثم هاهم أولاء يرونه قد زال عن أعينهم واختفى، وبدأ الامتعاض على وجه إبراهيم، وقال:

﴿لا أحب الآفلين﴾.

«لا أحب إلا الحاضر باستمرار، أما ما يغيب ويختفى ويزول فلا تكون له صفة الثبات والدوام والخلود فإننى لا أقدسه ولا أعتبره إلهًا، فالإله باق مستمر خالد قريب».

بدأوا يفكرون ويتشككون، ويضيقون ذرعًا بآلهتهم وبإبراهيم.

وخانهم المنطق فى الرد عليه، وأبت عاداتهم ومألوفاتهم أن تستجيب للعقل والمنطق فكان الضيق البادى عليهم.

ولكن إبراهيم فاجأهم بما خفف عن عقولهم ونفوسهم، بافتراضه حينما رأى القمر بازغًا أنه الله، وسرت فى القوم همسات الارتياح، وأصوات الاستحسان، وتطلعوا إلى القمر مفتونين بشعاعه الفضى وبجماله المتألق، ولكنهم رأوه هو الآخر ينحدر، فأخذت قلوبهم تخفق مع انحداره، وتوقعوا الخاتمة، وتوقعوا ما سيقوله إبراهيم الذى أعلن لهم حينما زال القمر واختفى:

﴿لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين﴾.

مبينًا بذلك أن هدى الله ليس فى عبادة الكواكب، ولا فى عبادة القمر،

وعلا وجوه القوم سهوم، ولزموا الصمت، واستمروا فى تأمل إلى الصباح وإذا بالشمس تشرق ساطعة جميلة، فيقول إبراهيم:

﴿هذا ربى هذا أكبر﴾.

ولكنها هى الأخرى غير مستقرة، إنها إلى زوال. فلما زالت قال:

﴿يا قوم إنى برىء مما تشركون، إنى وجهت وجهىَ للذى فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين﴾ (الأنعام آية: ٧٩).

خلّص إبراهيم عليه السلام عقيدة الألوهية من جميع ألوان الشرك المعروفة لعهده.

لقد خلصها من عبادة الإنسان، وخلصها من عبادة الأصنام، وخلصها من عبادة الملائكة، وخلصها من عبادة الكواكب، وأعلن فى النهاية:

﴿إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين﴾.

إلى التوحيد الخالص كان يدعو منذ أن آتاه الله رشده فى سن مبكرة وهو فى بابل، وإلى التوحيد الخالص كان يدعو وهو فى رحلته من بابل إلى بلاد الشام.

كان يرافقه فى رحلته زوجته، وكان يرافقه لوط عليه السلام، وكان من أول من آمن به وقد كان ابن أخيه.

وما كان الركب متعجلًا فى رحلته، إنها رحلة إلى الله، ولذلك كانوا ثلاثتهم، ينتهزون الدعوة إلى الله كلما حانت الفرصة، وإذا اقتضت الدعوة الاقامة أيامًا، أو أسابيع أقام الركب يدعو بسلوكه المتسامى وبقوله العذب وبمنطقه الفصيح.

ثم استقر المقام فى النهاية بالشام، وهى ما عناه الله سبحانه بالأرض المباركة فى قوله تعالى:

﴿ونجيناه ولوطًا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين﴾ (الأنبياء آية: ٧١).

أقام إبراهيم فى أرض الشام ما شاء الله له أن يقيم، ثم جاءت فترة أمسكت السماء فيها مطرها وأجدبت بسبب ذلك الأرض، فلم تنبت ولم تثمر فهاجر إبراهيم ومن معه إلى مصر.

أقام فى مصر يدعو إلى الله ويتاجر، ويبدو أن تجارته نمت وأصبحت له شهرة، ويبدو أن صلة قامت بينه وبين القصر الملكى فى مصر، بيد أن دعوة التوحيد تزعج دائمًا الطغاة والجبارين ومدعى الألوهية، ومن أجل ذلك لم تطب الإقامة لإبراهيم فى مصر، فقد تنكر له الملك، وتنكرت له الحاشية، ولكنه مع ذلك خرج من مصر على مودة ظاهرية شكلية بادية، وكان من مظاهرها إهداء القصر لإبراهيم عليه السلام «هاجر» تقوم على خدمته وخدمة أسرته.

وكان أبو هريرة رضى الله عنه يذكر هاجر ويقول لقريش:

تلك أمكم يا بنى ماء السماء.

وتذكر كتب السير أن إبراهيم عليه السلام، رجع من بلاد مصر إلى أرض الشام ومعه أنعام وعبد، ومال جزيل، وصحبتهم هاجر القبطية المصرية.

فلما استقر به المقام من جديد بأرض الشام، وكان لوط عليه السلام فى هذه الفترة قد بلغ من النضج بحيث يمكنه أن يستقل بالدعوة، رأى إبراهيم عليه السلام - لمصلحة الدعوة - أن يرسل لوطا إلى بقعة أخرى ليكون للدعوة مركزان:

مركز يقوم عليه إبراهيم عليه السلام، ومركز يقوم عليه لوط عليه السلام.

ولعل لوطًا كان قد نبئ فى تلك الآونة.

ولعله لم ينبأ إلا فى مكانه الجديد.

ومهما يكن من شىء فقد ارتحل لوط إلى سدوم ليدعو إلى الله..

وسندعه مؤقتًا مستغرقًا فى دعوته ونواصل مرافقة إبراهيم عليه السلام.

* * *

فارق إبراهيم عليه السلام ديار مصر إلى الشام هو ولوط وسارة، ومعهم

هاجر وكان معهم مال كثير، واستقر إبراهيم فى أرض الشام، فأرسل لوطًا إلى سدوم.

فلما استقر بإبراهيم المقام، وهدأت الأمور، رأت سارة أن حياة إبراهيم عليه السلام بدون ولد يلعب فى البيت ويبتسم ويضحك حياة ينقصها عنصر من عناصر البهجة، ورأت أن حياة الدعوة محتاجة إلى ولد يشرب مبادئها، ويشب فى جوها، ويسير على قواعدها، ثم يتابع الرسالة ويحمل الدعوة بعد أبيه، فعرضت على إبراهيم أن يدخل بهاجر.

وماذا فى ذلك؟

إن هاجر - فيما رأت سارة، وفيما رسم لها تفكيرها - خادمتها، وستستمر هى رغم دخول إبراهيم بهاجر سيدة البيت الأولى، وستستمر منزلتها من هاجر هى: منزلة ربة البيت وبجوارها خادمة قد كرمتها فوهبتها لزوجها لمجرد مهمة محددة: هى إنجاب الولد.

وتم الزواج، وحملت هاجر، وشعرت هاجر بأن الوضع قد تغير بسبب هذا الحمل، وشعرت بأنها وشيكًا ستكون أمًّا، وسيكون زوجها أبًا: أى شديد الصلة بها، وثيق الرابطة بابنها، وشعرت بأنها تمتاز بما ينقص سارة، وأنها لم تعد مجرد الخادمة التابعة، بل أصبحت من الأسرة، لها حقها، ولها كرامتها.

وربما كانت فى كل ذلك لا هم لها إلا تمهيد جو كريم يشب فيه ابنها

بحيث لا يرى أثرًا لماضى أمه المتواضع، ولا يرى جوًّا تكون أمه فيه أقل من باقى الزوجات.

ولعلها لم تكن فى كل ذلك ناظرة إلى نفسها، وإنما ناظرة إلى هذا الأمل الحلو الذى يوشك أن يتحقق، وإلى هذه السعادة التى توشك أن تنبثق، إنها ستعطى إبراهيم ما تمناه حين دعا الله أن يهب له ولدًا من الصالحين، وستسعد هى بأن تكون أما.

وشعرت سارة بالوضع الجديد، ولاحظت فى مسلك إبراهيم عليه السلام من هاجر تغييرًا. لقد أصبح يعاملها كزوجة بعد أن كان يعاملها كخادمة، ومع أنه لم يكن يهينها أو يمتهنها فيما مضى، لأنه على خلق كريم.

ومع أن نضجه واتزانه ورويته كانت تمنعه من إظهار ألوان من الخفة تبدو فى مسلك من حرم الولد فترة طويلة من الدهر ثم إذا به فجأة وعلى لهفة إلى الولد يرى الأمل العذب يوشك أن يتحقق.

ومع أنه كان رفيقًا بسارة محبًّا لها متودّدًا إليها.

مع كل ذلك، شعرت سارة بأن الموقف قد تغير.

وهاهى ذى تتبع حركات هاجر، الصغيرة منها والكبيرة، بفؤاد يقظ تسمع أذنها ما تقول هاجر وما لم تقله، وترى عينها ما تفعل هاجر وما لم تفعل وكذلك كانت أيضًا - بل ومن باب أولى - فيما يتعلق بإبراهيم عليه السلام وكبتت عاطفتها أول الأمر، ولكنها فى النهاية

لم تحتمل كبت عاطفتها، وأخذت تبدى ما خفى فى نفسها شيئًا فشيئًا، وأخذت هاجر تتلطف وتتستر حتى لتقول الروايات:

«إنها اتخذت أثوابًا طويلة الذيل لتعفى أثرها على سارة أى لتخفى سيرها ومواضع أقدامها فتضيع المعالم ولا يتأتى لسارة أن تعلم خط سيرها حينما تتبعها فى حلها وترحالها.

إلام انتهى هذا الوضع بالنسبة لها؟

ذلك ما سنتحدث عنه:

اتجه إبراهيم إلى الله متضرعًا وقال:

﴿رب هب لى من الصالحين﴾ (الصافات آية: ١٠٠).

واستجاب الله دعاءه وبشره بغلام حليم.

ولد هذا الغلام بأرض الشام، ولدته هاجر التى وهبتها سارة لإبراهيم زوجة له، فلما دخل بها حملت، وجاء يوم رأى فيه بيت إبراهيم عنصرًا جديدًا فى حياته هو إسماعيل المولود الجديد.

ودبت الغيرة فى قلب سارة فلم تحتمل رؤية إسماعيل وأمه، فأشارت على إبراهيم أن يتخير لهما مكانًا آخر، واستخار إبراهيم ربه، ثم حمل الأم وطفلها إلى المكان الذى أمره الله باقامتهما فيه: إلى مكة.

لقد وضعهما عند شجرة كبيرة «فوق زمزم فى أعلى المسجد» وليس بمكة

يومئذ أحد، وليس بها ماء، إذ لم يكن ماء زمزم قد تفجر بعد.

لقد وضعهما هنالك وترك لهما شيئًا يسيرًا من الزاد يتمثل فى جراب من تمر وفى سقاء من ماء.

وهم إبراهيم بالعودة من حيث أتى، وتطلعت هاجر هنا وهناك، وأجالت بصرها شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا فلم تر أنيسًا، ولم تلمح أثرًا للحياة فتعلقت بإبراهيم ترجوه فى أن لا يتركهما بهذا الوادى الذى لا أنيس به، وصمت إبراهيم عليه السلام، وأعادت هاجر الرجاء، وصمت إبراهيم عليه السلام، وكررت هاجر الرجاء فلم تجد إلا صمتًا، صمتًا تتمثل فيه الرحمة والمودة، والحب والحنان، ولكنه صمت مُصرٌّ وسكوت عازم.

فقالت هاجر: الله أمرك بهذا؟

فقال: نعم.

فقالت: إذن لا يضيِّعنا.

وتركته ينصرف وعادت إلى ابنها تضمه بين ذراعيها فى حنان وحب. وسرحت بخيالها فى المستقبل المجهول، وفى تصاريف القدر، وكلها ثقة فى عناية الله ورعايته.

انطلق إبراهيم عائدًا حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا الله رافعًا يديه قائلاً:

﴿ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ (إبراهيم آية: ٣٧).

وهدأت نفسه، وسار فى طريقه مفوضًا الأمر إلى الله لا تهمس فى الكون همسة ولا تطرف فيه عين إلا بعلمه وإرادته.

أما أم إسماعيل فقد انفردت فى هذا المكان مع ابنها الرضيع تجول نظراتها فى عالم الإشفاق، ويجول إيمانها فى جو الثقة، تجرها طبيعتها إلى الخوف، وينزع بها يقينها إلى الأمن، ثم ألقت بقيادها إلى الله.

وضمت طفلها إلى صدرها، وأغمضت عينيها، وأرسل الله النعاس انقاذًا لها من التردد بين ما توحى به طبيعتها وفطرتها، وما يوحى به إيمانها ويقينها.

وعاشت أم إسماعيل على جراب التمر وسقاء الماء مقتصدة، مسرفة فى الاقتصاد، ولكن جراب التمر وسقاء الماء ما لبثا أن نفدا.

وضع إبراهيم عليه السلام ابنه الرضيع إسماعيل وأمه هاجر عند بيت الله الحرام وتركهما، ومعهما زاد قليل لم يلبث أن نفد، وجاعت الأم وعطشت وجاع ابنها وعطش، وجعل يتلوى باكيًا، صارخًا فى منظر يفتت القلوب، ولم تتحمل الأم رؤيته على هذه الحالة، فانطلقت كراهة أن تنظر إليه على هذه الحالة فوجدت الصفا أقرب المرتفعات إليها فأسرعت نحوه،

وارتقت عليه وأخذت تجيل بصرها فى الوادى هل ترى من أحد، فلم تر أحدا.

فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف ثوبها مشمرة ملابسها ثم سعت سعى الإنسان المجهود، لقد كانت تسعى، وقد أنهكها الجوع والعطش تدفعها عاطفة الرحمة بابنها، كانت تسعى وكلها رحمة بهذا الرضيع الذى يلوح أمام عينيها وفى ذهنها منظره يتلوى جوعًا وعطشًا.

لقد أخذت تسعى حتى جاوزت الوادى، ووصلت إلى جبل المروة، فارتقته وأخذت تنظر، وعادت من جديد هابطة، وهكذا أخذت تتردد حيرى والهةً بين الأكمتين سبع مرات:

وهذا هو أساس منسك السعى بين الصفا والمروة فى شعيرة الحج

قال ابن عباس، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

فلذلك سعى الناس بينهما.

والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾.

إن الحاج إلى بيت الله الحرام يسعى بين الصفا والمروة سبع مرات، إنه فى هذا يترسم خطا هذه السيدة، إنه يرسمها مستشعرًا ما كانت تشعر به من رحمة وحنان.

وإذا كانت رحمتها وحنانها إنما كانا من أجل ابنها الرضيع المسكين فإن الرحمة التى ينبغى أن يستشرف إليها الحاج راجيًا أن تملأ نفسه وأن تفعم جوانحه، إنما هى الرحمة بالإنسانية جمعاء، الرحمة بكل من يحس بالألم، أو يشعر بالضيق بسبب ما يحل به من جوع أو ظمأ، أو بسبب ما يحيط به من مكر وكيد، أو بسبب ما يشعر به من خوف وقلق، الرحمة بكل من كان فى حاجة إلى الرحمة.

ونعود إلى أم إسماعيل فنجدها يلوح لها بريق من الأمل، فها هى ذى تسمع صوتًا وخيل إليها - وهى فى عنفوان عاطفتها - أن نبضات قلبها، أو خفقان ثوبها يعكر عليها السماع فقالت: صه أى أسكت - وكانت تريد نفسها بذلك - ثم تسمعت وكلها آذان، وصمتت وكلها شعور، فسمعت صوتًا من جديد، فصاحت بأعلى صوتها مستنجدة فى لهفة قائلة:

قد أسمعت إن كان عندك غوث.

فإذا هى بالملك عند موضع زمزم يهز الأرض، فإذا بالماء يظهر، وإذا بالنبع يتفجر، وإذا بالسعادة كلها تلوح عند هذا الماء المتلألئ فى شعاع الشمس.

وإذا بقلب هذه السيدة يسجد لله شكرًا، وإذا بلسانها ينطلق ثناء وحمدًا، ثم إذا بها تسمع الملك يقول:

«قال الملك لأم إسماعيل»:

«إن الله لا يضيع أهله».

شربت أم إسماعيل وأرضعت ولدها - وقال لها الملك - كما روى الإمام البخارى - لا تخافوا الضيعة فإن هذا البيت يبنيه هذا الغلام وأبوه، وأن الله لا يضيع أهله.

هل كان بيت الله مبنيا قبل ذلك؟ ومن بناه؟

إن إبراهيم عليه السلام يقول:

﴿ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم﴾.

فهل كان بيت الله المحرم موجودا قبل إبراهيم؟

إن حديث الإمام البخارى يقول:

وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله.

ويقول الله تعالى فى تحديد لا لبس فيه:

﴿إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركًا﴾.

وبكة فى قول الله تعالى هى: مكة، فمتى بنى البيت؟

يروى الإمام البيهقى فى دلائل النبوة بسنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

بعث الله جبريل إلى آدم، فأمره ببناء البيت فبناه آدم.

ثم أمره بالطواف به وقيل له:

أنت أول الناس، وهذا أول بيت وضع للناس.

وروى عبد الرزاق عن عطاء رضى الله عنه أن آدم أول من بنى البيت.

والأحاديث النبوية متسقة مع القرآن الكريم تشير إلى أن أول بيت وضع للناس إنما هو البيت الحرام، وأن أول من بناه هو آدم.

وما من شك فى أن البيت كان يهمل ويترك أحيانًا فيتهدم ولكن معالمه تبقى حتى يأتى من يجدده.

وقد جدده سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل. والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾.

ولم يقل سبحانه:

وإذ يضع إبراهيم القواعد.

وإبراهيم وإسماعيل كانا إذن يرفعان القواعد التى وضعها آدم عليه السلام.

ولا بأس بأن نتعجل سير التاريخ من أجل تكميل قصة البيت حتى لا تكون متفرقة مشتتة.

لا بأس من أن نتعجل سير التاريخ فنصل إلى إسماعيل عليه السلام، وقد أصبح شابًّا فتيًّا يأتيه أبوه فيقول له - كما يروى الإمام البخارى:

الله أمرنى بأمر.

قال: فاصنع ما أمرك ربك.

قال: وتعيننى؟

قال: وأعينك.

قال فإن الله أمرنى أن أبنى ها هنا بيتًا.. وأشار إلى أَكَمة مرتفعة على ما حولها.

قال فعند ذلك رفعا القواعد من البيت. فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان:

﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾.

قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان:

﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾.

قال إبراهيم عليه السلام:

﴿إنى ذاهب إلى ربى سيهدين﴾.

وحزم أمره فغادر العراق متجها إلى الشام، وفى أثناء الطريق أحس إبراهيم بأنه يسير دون أن يكون فى صحبته ولد يؤنسه ويعينه.

لقد شعر بالحاجة إلى وريث للدعوة معين فيها، أحس بالشعور الفطرى شعور الأبوة، يريد أن تتحقق الأبوة، والحنين إلى الأبوة كالحنين إلى الأمومة فطرى فى الانسان.

ولم يكن إبراهيم عليه السلام قد أنجب إذ ذاك أولادًا، فاتجه إلى الله فى تبتل وضراعة وخشوع، وقال:

﴿رب هب لى من الصالحين﴾.

الصالحين للدعوة، والصالحين للحياة، والصالحين فى أنفسهم، والصالحين لله.

إن كلمة الصالحين فيها من المعانى ما فيها.

ويجيب الله سبحانه وتعالى دعاءه قائلًا:

﴿فبشرناه بغلام حليم﴾.

وما من شك فى أن الحلم من الأسس الأصيلة للنجاح فى الدعوة.

أتى هذا الغلام على كبر من سن والده، وأتى وله لهفة للولد، وأتى بكر والده، وكان وحيدا، وكان أمل والده فيه وفى مستقبله كبيرًا، وخصوصًا لأن الله منحه عقلًا وذكاء ونجابة، ومن أجل ذلك كان قرة عين والديه وكان

حبهما له كبيرًا.

أخذ الغلام يشب ويترعرع، حتى بلغ السن التى يتمكن فيها من السعى والعمل وبلغ أيضًا من حب والديه مبلغًا عظيمًا، وكان الحب يزداد مع الأيام، ويكبر على مر السنين، وإذا بوالده يرى فيما يراه النائم أنه يذبح ابنه؛ وكان الوالد يعلم أنها إشارة له بذبح ابنه، إنها إشارة إلهية فما كان للشيطان عليه من سبيل، إنه ابتلاء جديد من نوع الابتلاء الذى اختبره الله به من تحطيم الأصنام والإلقاء فى النار، لقد نجح فى الاختبار السابق واجتازه فى ثقة بالله لاحد لها.

بيد أن الابتلاء السابق كان واضح المعنى، وكان سافر الملامح.

لقد كان أمرًا صريحًا بتحطيم الأصنام، وكان تحطيمًا مفهوم الدلالة، فما ينبغى أن يعبد مع الله أحد، وما يجوز فى منطق العقل والقلب والشعور السليم أن ينصرف الإنسان عن مانح النعم.

وكان الإلقاء فى النار أيضًا واضح المعنى، إنه فى سبيل الله، وفى سبيل الله يهون كل ألم.

لقد نجح فى الابتلاء الماضى وحفظه الله سبحانه وكتب له النجاة كما يفعل سبحانه بكل من والاه.

ولكن هذا الابتلاء الجديد غير مفهوم المعنى، وليس واضح الملامح، إنه قتل إنسان، إنه ذبح إنسان، وهذا الانسان ابن، والوالد هو الذى يذبحه..

سبحانك ربى: لقد حفظت هذا الغلام رضيعًا، وفجرت له الماء رحمة به، وقد كان من الممكن أن تنتهى به الحياة إذ ذاك، ولكنك سبحانك جلت حكمتك، أبقيته وحفظت حياته، فكان من المفروض أن تستمر به الحياة إلى أن تبلغ غايتها.

لعل مثل هذه الآراء جالت بذهن إبراهيم، أو بذهن إسماعيل، ولكنها كانت فى مقابلة الإشارة الإلهية بالذبح كالهباء فى الهواء، لم تثبت، ولم تقف على قدميها، وكان لابد مما ليس منه بد، وتهيأ إبراهيم عليه السلام لذبح ابنه، بِكْره، وحيده، لقد تهيأ لذبح إسماعيل، فما هى الحكمة.

أشار الله إلى إبراهيم فى الرؤيا بذبح ابنه.

والحكمة فى ذلك كما يقول الإمام ابن القيم.. أن الله سبحانه أجرى العادة البشرية أن* بكر الأولاد أحب إلى الوالدين ممن يولد بعده.

وإبراهيم لما سأل ربه الولد، ووهب له، تعلقت شعبة من قلبه بمحبته، والله سبحانه وتعالى قد اتخذه خليلاً، والخلة منصب يقتضى توحيد المحبوب بالمحبة، وأن لا يشارك بينه وبين غيره فيها.

فلما أخذ الولد شعبة من قلب الوالد، أحب الله سبحانه لخليله أن يكون له كلية، فأمره سبحانه بذبح هذا الذى أخذ حبه شعبة من قلبه، وذلك ليخلص له كاملاً. وجاء إبراهيم عليه السلام فى يوم من الأيام إلى ابنه قائلاً:

﴿يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك، فانظر ماذا ترى﴾ (الصافات آية: ١٠٢).

أما قوله لابنه: فانظر ماذا ترى فإنه لم يكن تخييرا له، وإنما أحب الوالد أن يأتى بابنه رغبة وطاعة فيكون له الأجر والثواب.

ولو تردد الابن أو أبى أو خالف أباه لأخذه رغم أنفه.

يقول الامام الرازى:

الحكمة فى مشاورة الابن فى هذا الباب أن يطلع ابنه على هذه الواقعة فيظهر له صبره فى طاعة الله فتكون فيه قرة عين لإبراهيم حيث يراه قد بلغ فى الحلم إلى هذا الحد العظيم، وفى الصبر على أشد المكاره، إلى هذه الدرجة العالية.

ويحصل للابن الثواب العظيم فى الآخرة، والثناء الحسن فى الدنيا.

وحينما سمع إسماعيل عليه السلام من أبيه هذا الخبر وكان يشعر شعورًا واضحًا أن أباه لا يسير فى حياته إلا بتوجيه إلهى، وأن الشيطان لا سبيل له على أبيه أجاب فورًا:

﴿يا أبت افعل ما تؤمر، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين﴾ (الصافات آية: ١٠٢)

ماذا حدث بعد ذلك؟

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال:

قال الابن: يا أبت اشدد رباطى كيلا أضطرب، والفف ثيابك حتى لا ينتضح عليها من دمى شىء فينقص أجرى، وتراه أمى فتحزن، واستحد شفرتك، وأسرع بها على حلقى ليكون أهون علىّ.

وإذا أتيت أمى فاقرأ عليها السلام منى، وإن رأيت أن ترد عليها قميصى فافعل فإنه عسى أن يكون أسلى لها عنى.

فقال ابراهيم عليه السلام: نعم العون أنت يابنى على أمر الله.

لقد تهيأ كل شىء لتنفيذ الرؤيا، ومع ذلك فإن الذبح لم يتم فماذا حدث؟

هم سيدنا ابراهيم بذبح ابنه، وتهيأ كل شىء لتنفيذ الذبح.

الأب موقن بأن رؤياه إلهام من الله، والابن موقن بأنه على صواب حينما رضى بالموت تنفيذًا لأمر الله.

لقد استسلم الأب لأمر الله، واستسلم الابن لأمر الله، والقرآن حينما تحدث عن حالتهما هذه قال:

﴿فلما أسلما﴾.

لقد أسلما رغم محاولة الشيطان أن يلعب دورًا فى هذا الاختبار والابتلاء.

لقد جاء الشيطان يوسوس إلى إبراهيم عليه السلام موحيًا بأن الأمر

لا يخرج عن أن يكون رؤيا، وكم فى الرؤى من أضغاث أحلام، وهل من العقل أن يذبح إنسان ابنه مطيعًا رؤياه.

لعلها وهم من الأوهام، ولعلها خيال، مجرد خيال.

على أنه فى الرؤيا - حسب وسوسة الشيطان - لم يؤمر بذبح ابنه، ولكنه رأى أنه يذبحه، وفرق بين أن يؤمر بذبحه، وبين أن يرى أن يذبحه،

وأحس سيدنا ابراهيم بالشيطان يريد أن ينفذ إلى قلبه، وإلى تفانيه فى الله، وإلى موطن اليقين والرضا من قلبه، فرجم الشيطان بسبع حصيات ورده خاسئًا مدحورًا.

ولم ييأس الشيطان، وهو العنيد اللجوج، لقد انصرف عن الأب إلى الابن قائلًا:

إنها مجرد رؤيا، أيذبحه أبوه من أجل رؤيا.

وأحس الابن بالمحاولة الخبيثة، وعرف أنها محاولة شيطانية، فرجم الشيطان بسبع حصيات.

ولم ييأس الشيطان وهو العنيد اللجوج، فذهب مسرعًا إلى الأم:

أدركى ابنك، إن أباه يريد أن يذبحه، استنقذيه منه، قبل فوات الأوان.

ورجمته، لثقتها بأن زوجها لا يتصرف إلا فى إطار الوحى، لقد رجمته هى الأخرى بسبع حصيات، لقد رجم الجميع مصدرًا من أهم مصادر الشر

وهو الشيطان، وهذا الرمز الجميل، أعنى رجم مصدر من مصادر الشر هو الذى يتكرر كل عام حينما يوشك الحجاج إلى بيت الله الحرام، أن ينتهوا من حجهم.

إن حكمة رمى الجمار فى الحج، إنما هى رجم مصدر من أهم مصادر الشر والإثم والمعصية وهو إبليس.

رجمه مرارًا وتكرارًا.

وتنتهى أعمال الحج بهذه الصورة الرائعة، صورة العزم المصمم على الابتعاد المطلق عن الإثم والمعصية، وذلك تسجيل مؤكد، وإعلان مشهود وإشهاد سافر على أن الحاج قد عزم عزمًا لا تزعزعه أعاصير الشهوة أو مغريات الفتنة، على أن يصبح خير كله لا مجال لنزغات الشيطان للتسلل إلى نفسه فقد أصبح - بتطهير نفسه، وبرجم الشيطان - من عباد الله المخلصين الذين لا سلطان للشيطان عليهم.

لقد أسلم ابراهيم واسماعيل عليهما السلام، فلما أسلما، أى خلصا لله كلية واستسلما إليه استسلامًا مطلقًا جاء النداء، وذلك أنه فى اللحظة الأخيرة نودى ابراهيم عليه السلام.

﴿يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، إنا كذلك نجزى المحسنين، إن هذا لهو البلاء المبين، وفديناه بذبح عظيم﴾(الصافات آية: ١٠٤-١٠٧).

لقد أسلما إسلامًا استتبع الفداء، والإسلام لله على هذه الصورة أى

الاستسلام الكامل لله يستتبع حتمًا الفداء فى كل عصر، وفى كل مصر.

إن من أسلم نفسه لله عاملًا فى سبيله، قائمًا بما يرضيه، تكفل الله به حماية ونصرًا، عناية ورعاية فى الدنيا والآخرة:

﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾ (يونس آية: ٦٢-٦٤)

لقد تحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرؤى، ونذكر من ذلك الأحاديث الصحيحة التالية:

● الرؤيا الصادقة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة.

● وأن رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة. وأنه لم يبق من النبوة إلا المبشرات قالوا: وما المبشرات؟

قال: الرؤيا الصالحة.

هذه الأحاديث التى نقلناها عن الإمام البخارى رضى الله عنه تساندها أحاديث أخرى، وينتهى الأمر بالأحاديث إلى تقسيم مايراه النائم إلى ثلاثة أقسام:

● قسم من الله وهو الرؤيا الصادقة.

● وقسم من الشيطان.

● وقسم مما يحدث به الرجل نفسه فى اليقظة فيراه فى النوم.

وهذه الأقسام تشتمل على جميع مايراه الانسان فى النوم

أما العلم الحديث فقد بين فى وضوح تام أثر العوامل الخارجية، والعوامل الداخلية الباطنية فى الرؤيا.. وجعلها كلها أثرًا لحديث النفس، أى للشعور، فتكون امتدادًا لجو اليقظة أو للاشعور، فتكون تنفيسًا للكبت وهذا الذى يذكره العلم الحديث تفسيرًا للرؤيا حق لامراء فيه. والدين يذكر كل ما يذكره العلم الحديث، ويزيد عليه ماهو بديهى عند كل إنسان: من وجود نوع ثالث.

وهذا النوع من الرؤيا الصادقة تعترف به الأديان السماوية الكبرى جميعها فهى تتحدث عن رؤيا يوسف عليه السلام، ورؤيا الملك الذى استدعى يوسف عليه السلام من السجن لتأويل رؤياه ويقول القرآن الكريم فى شأن رسولنا عليه الصلاة والسلام:

﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون﴾ (الفتح آية: ٢٧)

بيد أن الطريف فى موضوع الرؤيا: أن لها معبرين، أو مؤولين أو مفسرين فإنها فى الأغلب الأعم، رمزية، وحل هذه الرموز إنما هو فن قائم بنفسه اشتهر به رجال، وكتبت فيه كتب.

ولقد كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يسأل الصحابة رضوان الله عليهم عن رؤياهم ويعبرها لهم ويحدثهم هو أحيانا عن رؤيا له.

وتعبير الرؤيا وتفسيرها فن يشترك فيه الآن علماء التحليل النفسى وهؤلاء الذين يلهمهم الله التعبير من الصالحين.

بيد أن علماء التحليل النفسى يقتصرون على تعبيرها فى جوانبها الحسية المادية ويكتفون بذلك، أما الآخرون: فإنهم يعبرونها فى جوانبها الغيبية الصادقة.

ولا يضير الحق أن يسجن علماء التحليل النفسى أنفسهم، وأن يسجن العلم الحديث نفسه، فى سجن المادة والحواس، فإن الحق فى أمر الرؤيا واضح أبلج، والناس - من شرقيين وغربيين، ومن قدماء ومحدثين يلاحظون وجود الرؤيا الصادقة ووقوعها يجرى فى دائرة تجاربهم.

* * *

إن الله لا يضيع أهله، ومن أجل ذلك فجّر ماء زمزم رحمة باسماعيل وأمه هاجر، وما أن تفجر الماء حتى حام حوله الطير وكأنه كان منه على ميعاد وكان من تدبير الله سبحانه أن مرت فى هذه الفترة بالقرب من الماء المتفجر قافلة من جرهم، فلما رأوا الطيور تحوم حول مكان زمزم أخذتهم الدهشة لأنهم يعلمون أن الطيور لا تحوم إلا على ماء، ويعلمون من جانب آخر أن هذا المكان - وقد مروا به من قبل - لا ماء فيه.

ولأجل أن يقطعوا الشك باليقين أرسلوا رسلاً منهم يستنبئون الخبر فإذا هم بالماء فرجعوا إلى قومهم فرحين متهللين وأخبروهم فأقبل الجميع وكانت أم اسماعيل على الماء.

فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟

قالت: نعم، ولكن لاحق لكم فى الماء، وقبلوا شرطها، ونزلوا بجمعهم ثم أرسلوا إلى أهليهم فجاءوا ونزلوا معهم.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فآنس ذلك أم اسماعيل وهى تحب الأنس.

أنست أم إسماعيل بهم، وعاشروها فأحسنوا معاملتها، وشب ابنها بينهم وكانت لغتهم العربية، فأخذها اسماعيل عنهم وأصبحت لغته ولغة ذريته من بعده.

ولقد اشتهر بالعربية الفصيحة البليغة حتى لقد قال بعضهم: إن عربيته كانت أفصح من عربية «يعرب بن قحطان».

شب اسماعيل عليه السلام بين جرهم فيه الفتوة، والرجولة، والذكاء والمروءة، وأعجبتهم أخلاقه فزوجوه فتاة منهم.

وكانت أم اسماعيل قد تقدمت بها السن فاختارها الله لجواره.

وكان ابراهيم عليه السلام يأتى بين الفينة والفينة «يطالع تركته» على

حد تعبير الحديث الشريف، أن يتفقد حال من تركهم بجوار البيت الحرام.. وذات يوم جاء ابراهيم على عادته، وكانت هاجر قد ماتت، وكان اسماعيل قد تزوج، وطرق إبراهيم الباب فخرجت له زوجة اسماعيل، فسألها عنه، فقالت: خرج يطلب الرزق فسألها عن عيشتهم فقالت له:

نحن بشر حال، نحن فى ضيق شديد، وشدة محزنة، وأخذت تشكو إليه أمرها، ضيقة بحياتها، بطرة بعيشها.

ولقد رأى من خلال حديثها أنها ترى العالم بمنظار أسود، وتغلب على كل شىء فيه جانب التشاؤم وتجرى بخيالها فى أودية الهموم حتى وإن كانت الهموم بعيدة عنها، ورأى أن هذا النوع من النساء يجعل الحياة بعيدة عن السعادة.

وما من ريب فى أن من آيات الله أن خلق لنا من أنفسنا أزواجا لنسكن إليها وجعل بيننا مودة ورحمة، فإذا فقد ذلك فإن الزواج يكون مأساة مستمرة، رأى ابراهيم كل ذلك فقال لها: إذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له: يغير عتبة بابه.

وكما قابلته بتجهم فقد ودعته باستخفاف.

فلما جاء اسماعيل، كأنه أنس شيئًا فقال: هل جاءكم من أحد؟

قالت: نعم، جاءنا شيخ من صفته كذا وكذا، وكانت فى حديثها كالمستخفة به. وقالت: كالمتحدية، وأخبرته أننا فى جهد وشدة.

فقال اسماعيل: هل أوصاك بشيء؟

قالت: نعم، أمرنى أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غير عتبة بابك.

قال: ذاك أبى، وقد أمرنى أن أفارقك، فالحقى بأهلك، فطلقها.

لقد وصل الأمر بسيدنا ابراهيم عليه السلام أن كان خليل الله سبحانه وتعالى، يقول عز وجل:

﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ (النساء: آية ١٢٥)

وقد يتساءل إنسان عن الصفات التى أهلت ابراهيم عليه السلام لهذه المنزلة العظمى، وهذا يجرنا إلى الحديث على شخصية سيدنا ابراهيم من الناحية الخلقية.

يقول عبيد بن عمير، فيما رواه ابن أبى حاتم:

كان ابراهيم عليه السلام يضيف الناس، فخرج يومًا يلتمس انسانًا يضيفه فلم يجد أحدًا يضيفه، فرجع إلى داره، فوجد فيها رجلاً قائمًا فقال:

يا عبد الله ما أدخلك دارى بغير اذنى؟

قال: دخلتها بإذن ربها.

قال: ومن أنت؟

قال: أنا ملك الموت أرسلنى ربى إلى عبد من عباده أبشره بأن الله قد اتخذه خليلاً.

قال: من هو؟ فو الله إن أخبرتنى به ثم كان بأقصى البلاد لآتينه، ثم لا أبرح له جارًا حتى يفرق بيننا الموت.

قال: ذلك العبد أنت.

قال: أنا؟ قال نعم.

قال: فيم اتخذنى (ربى) خليلًا؟

قال: بأنك تعطى الناس ولا تسألهم.

وجوهر هذه القصة التى رويناها من أجله أن ابراهيم عليه السلام كان يعطى الناس ولا يسألهم.

وما من شك فى أن ذلك عامل من أهم العوامل التى تقرب إلى الله سبحانه، ومعنى ذلك أنه كان يعطى الناس ولا يسألهم، إنه كان يضحى ويبذل ولا ينتظر من وراء ذلك من الناس جزاءً ولا شكورًا.

وهذه الصفة من مظاهر الكرم، وقد كان سيدنا ابراهيم عليه السلام كريمًا وصفه الكرم فيه مشهورة معروفة، يقول صاحب كتاب «الصدق»

روى العلماء أن إبراهيم الخليل صلوات الله عليه كان لايأكل إلا مع الضيف، فربما لايأتيه الضيف ثلاثة أيام فيطويها، وربما كان يمشى الفرسخ (الفرسخ قريب من ثلاثة أميال) أوأقل، أوأكثر، تلقيًا للضيف.

على أن الله سبحانه وتعالى قد أشار إلى كرم سيدنا ابراهيم، وذلك حينما

أتته الملائكة فى صورة بشر، فقدم لهم عجلًا سمينًا مشويًا يقول سبحانه:

﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى، قالوا: سلامًا، قال سلام، فما لبث أن جاء بعجل حنيذ﴾ (هود آية: ٦٩) (أى بعجل سمين مشوى)

لقد ظن ابراهيم عليه السلام أن هؤلاء بشر، فلما قدم لهم العجل الشهى لم يمدوا أيديهم إليه، فلما رأى ذلك منهم أحس بشىء من الخوف وذلك - من عادة الناس إذ ذاك - أن العدو لا يأكل من طعام عدوه، وأن من هم بفتك إنسان لا يأكل طعامه.

فلما رأى الملائكة ما بدا على وجهه طمأنوه، وعرفوه أنهم لا يريدون به شرًا.

ولا ريب فى أن من أسلم وجهه لله لا يتأتى منه إلا أن يكون كريمًا، ولقد روى الله سبحانه عن قوم أخلصوا وجوههم لله فكانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

وما من شك أن صفة الكرم مَن الصفات التى تقرب إلى الله، ولكنها وحدها لم تكن السبب الذى جعل ابراهيم خليلًا، وسنذكر بعض الصفات الأخرى إن شاء الله.

لقد تحدث الله سبحانه عن ابراهيم عليه السلام فى القرآن الكريم فى حوالى خمسة وثلاثين موضعًا ومن أجمعها فيما يتعلق بشخصيته وبخلقه، وفيما يتعلق بالثناء عليه، قوله تعالى:

﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه، ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين، إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين﴾ (البقرة آية: ١٣٠، ١٣١).

ومفتاح الأمر فى خلق ابراهيم عليه السلام، وفى الثناء عليه أيضا، هو اسلامه، وهو لم يكتف بأن أسلم فى نفسه وإنما قد وصى بهذه العقيدة بنيه، يقول تعالى:

﴿ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب، يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ (البقرة آية: ١٣٢)

والإسلام الذى دان به ابراهيم عليه السلام، ووصى به بنيه إنما هو إسلام الوجه لله سبحانه: أى التسليم لله فى جميع الأمور ما صغر منها وما كبر.

إن لله سبحانه وتعالى نظامًا معينًا فى الأوضاع الأخلاقية، والأوضاع الاجتماعية، فى العالم الإنسانى.

ونبتدئ هذه الأوضاع بإسلام الوجه لله سبحانه وهذا هو أساسها ولقد حدد ابن الأنبارى المتوفى سنة ٣٢٨ هـ معنى الإسلام من الناحية اللغوية البحتة، فقال:

المسلم معناه: المخلص لله فى عبادته، من قولهم سلم الشىء لفلان: خلص له، فالإسلام معناه إخلاص الدين والعقيدة لله تعالى:

ولقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى الإسلام فقال:

أن يسلم لله قلبك، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك.

والإسلام بهذا المعنى لا يختص ولا يشير إلى بيئة معينة، ولا إلى شخص معين، ولا إلى زمن معين..

إن هذه الكلمة: مجرد الكلمة: تضعنا مباشرة فى جو عالمى مطلق، بل فى جو عالمى يتخطى حدود هذا العالم الأرضى - إذا أمكن ذلك - فلا يتقيد به ولا يتحدد بحدوده..

إن إسلام الوجه لله هو دين الملائكة، وهو دين الأنبياء، وهو دين الله الذى لا دين غيره، وهل لله دين غير إسلام الوجه لله سبحانه؟

ومن أجل ذلك كانت كلمة: إسلام، وكلمة دين بمعنى واحد:

إن الدين فى أى عصر، وفى أى زمن، معناه الخضوع لله، والاستسلام له، والعمل على مرضاته، وهذا نفسه هو معنى الإسلام، والدين والإسلام إذن بمعنى واحد.

هذا المنهج - من إسلام الوجه لله والخضوع له، إنما كان المنهج الإبراهيمى وهو المنهج الذى رسمه الله سبحانه ديناً للإنسانية أجمع، ومن هنا كان قول الله تعالى:

﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾.

وملة ابراهيم هى منهجه فى الحياة، ومنهجه فى الحياة هو الإلقاء بقياده كلية إلى الله سبحانه.

الإلقاء بقياده إلى الله فى القول، والإلقاء بقياده إلى الله فى القلب والإلقاء بقياده إلى الله فى العمل.

وإذا ما ألقى الإنسان بقياده إلى الله سبحانه فى حياته كلها كان مسلمًا وحفظه الله كما حفظ إبراهيم عليه السلام.

ويصف الله سبحانه وتعالى سيدنا ابراهيم عليه السلام فيقول:

﴿وإبراهيم الذى وفَّى﴾ (النجم آية: ٣٧)

وكلمة (وفّى) من الكلمات التى تتضمن معان لا تكاد تحد، يقول الإمام ابن كثير: «وفى جميع ما أمر به، وقام بجميع خصال الإيمان وشعبه، وكان لا يشغله مراعاة الأمر الجليل عن القيام بمصلحة الأمر القليل، ولا ينسيه القيام بأعباء المصالح الكبار عن الصغار.

وشرح الإمام ابن كثير لهذه الكلمة هو أيضًا شرح عام يتضمن ما لا يكاد يعد من الجزئيات، ولا ريب أن ابراهيم كان دائمًا عند مرضاة الله لا يوجد إلا حيث يحب الله تعالى، ولا يتكلم إلا بما يحب الله سبحانه..

ولقد اختبره الله سبحانه، فصبر على الاختبار، ونجح فيه، وابتلاه الله سبحانه، فتحمل الابتلاء، وأرضى الله فى شأنه، وكان كلما نجح فى اختبار كافأه الله سبحانه بالحياة.

لقد حطم الأصنام استجابة لأمر الله، وأرادوا حرقه بالنار، فكانت النار عليه برداً وسلامًا، ونجاه الله من بلاء ذبح ابنه، وفداه بذبح عظيم..

ولقد حاول حبر الأمة الصحابى الجليل ابن عباس رضى الله عنه وعن أبيه أن يحدد الجوانب التى تتضمنها كلمة «وفى» ورأى أن إبراهيم عليه السلام وفّى بجميع شعب الإيمان التى يسميها ابن العباس سهام الإسلام، ولقد حددها حبر الأمة بثلاثين جانبًا أوشعبة أوسهمًا تتضمن عشرًا منها آية:

﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾. (التوبة آية: ١١١).

ففى هذه الآية الكريمة يذكر الله سبحانه الإيمان باعتباره الأساس ثم يصف المؤمنين بأنهم:

﴿التائبون، العابدون، الحامدون، السائحون، الراكعون، الساجدون، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، والحافظون لحدود الله﴾ (التوبة آية: ١١٢).

وقد يسأل إنسان عن السائحين فى هذه الصفات الكريمة.

والسائحون فى العرف الدينى هم الذين يهاجرون فى سبيل الله سواء أكان ذلك للعبادة، أم كان للجهاد.

ويستمر ابن عباس رضى الله عنه فى تعداد السهام التى وفّى بها ابراهيم عليه السلام، ويرى أن عشرة أخرى منها ذكرتها سورة الأحزاب فى الآية الكريمة التى تبتدئ بقوله تعالى:

﴿إن المسلمين والمسلمات﴾[1].

ومن السهام فى الآية: الصدق، والصبر، والخشوع، والذكر.

ولقد تضمنت سورة: «المؤمنون» من أولها ستة سهام، منها، أداء الزكاة، ومنها مراعاة الأمانة[2].

أما السهام الأربعة الباقية فإنها فى سورة «المعارج» تبتدئ بقوله تعالى: ﴿والذين يصدقون بيوم الدين﴾[3].

---

(١) الأحزاب آية: ٣٤وهى: ﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات، والقانتين والقانتات، والصادقين والصادقات، والصابرين والصابرات، والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات، والصائمين والصائمات. والحافظين فروجهم والحافظات، والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا﴾.

(٢) قال تعالى: ﴿قد أفلح المؤمنون، الذين هم فى صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون، والذين هم للزكاة فاعلون، والذين هم لفروجهم حافظون، إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك، فأولئك هم العادون، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾.

(٣) المعارج آية: ٢٦، والآيات هى: ﴿إلاالمصلين، الذين هم على صلاتهم دائمون، والذين فى أموالهم حق معلوم، للسائل والمحروم. والذين يصدقون بيوم الدين، والذين هم من عذاب ربهم مشفقون، إن عذاب ربهم غير مأمون، والذين هم لفروجهم حافظون، إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، والذين هم بشهاداتهم قائمون، والذين هم على صلاتهم يحافظون﴾.

والرأى الذى نراه هو ما قال به الحسن رضى الله عنه وهو أنه ما أمره الله تعالى بشيء إلا وفّى به.

* * *

من الصفات البارزة عند سيدنا إبراهيم كثرة التجائه إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء، والدعاء صورة محببة إلى الله سبحانه إلى درجة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«من لم يدع الله يغضب عليه».

وهذا الحديث يسير فى انسجام مع ما رواه الإمام أحمد عن النعمان بن بشير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«إن الدعاء هو العبادة» ثم قرأ:

﴿وقال ربكم ادعونى أستجب لكم، إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين﴾. (غافر: ٦٠).

ولقد وصف الله سبحانه وتعالى نفسه بأنه قريب، وبأنه مجيب، وبأنه رءوف رحيم، وبأنه ودود، وقال:

﴿وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ (البقرة: ١٨٦).

ومنزلة الدعاء بهذه المثابة لأنه تضرع إلى الله، والتجاء إليه وحده،

وتحقيق لقوله تعالى:

﴿وإياك نستعين﴾

وذلك إنما هو تحقيق لإسلام الوجه لله هو أخص خصائص التدين السليم.

ولقد كان سيدنا ابراهيم يدعو الله ويلجأ إليه فى كل أموره حتى أنه فى الحالات التى كان يغلبه فيها الحياء من الله فيصمت لسانه، كان حاله فيها ناطقًا بالدعاء.. لقد دعا الله من أجل انجاب الأولاد فقال:

﴿رب هب لى من الصالحين﴾ (الصافات: ١٠٠).

ولما ذهب لرؤية ابنه ووجده غائبًا سأل زوجه عن طعامها فقالت: اللحم، فسألها عن شرابها، فقالت: الماء، فدعا الله قائلا:

اللهم بارك لهم فى اللحم والماء.

ولما بنى هو وابنه الكعبة أخذا فى الدعاء قائلين:

﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ (البقرة آية: ١٢٧).

ولقد كانت هذه الكلمة فى مفتتح دعائهما، وكانت بين كل فقرة من الدعاء وأخرى، وكانت فى مختتم الدعاء.

ولقد كان من دعائهما وهما يبنيان:

﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، وأرنا

مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾ (البقرة: ١٢٨).

أما الدعاء الذى يشكر عليه كل مسلم سيدنا إبراهيم فإنه الدعاء الجميل الذى دعا به سيدنا ابراهيم عند البيت وفى وسط الجزيرة العربية:

﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾ (١٢٩).

وكان الله سبحانه وتعالى يستجيب دائما دعاءه، فإذا ما صمت سيدنا ابراهيم ولم تنطق شفتاه بالدعاء أدركته أيضاً رحمة الله فأذهبت عنه السوء.

وقد يتساءل إنسان عن السر فى أن الله سبحانه وتعالى كان دائماً يستجيب دعاء نبيه إبراهيم.

ولاستجابة الدعاء شروط إذا توافرت تمت الاستجابة: منها ما رواه ابن عباس رضى الله عنهما قال:

تليت الآية عند النبى صلى الله عليه وسلم:

﴿يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيبًا﴾

فقام سعد بن أبى وقاص فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة، فقال:

ياسعد، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذى نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه مايتقبل منه أربعين يومًا، وأيما عبد نبت لحمه من السحت، والربا فالنار أولى به.

والشرط الأساسى فى استجابة الدعاء أن يحقق الإنسان العبودية فى نفسه بالنسبة لله وحده، تحقيقًا صادقًا، وتحقيق العبودية ليس كلمةتقال، وليس عملًا بدون نية ولا نية بدون عمل، وإنما تتكاتف الجوارح واللسان والقلب، فتتحقق.

﴿إياك نعبد، وإياك نستعين﴾.

هى أن يؤدى الإنسان الفروض، ويكثر من النوافل، ويخلص قلبه لله وجماع كل ذلك إنما هو ما يقوله الله تعالى فى حديث قدسى:

«من عادى لى وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى من أداء ما افترضته عليه، وما يزال عبدى يتقرب لى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى أعطيته، ولئن استعاذ به لأعيذنه.

ولقد حقق سيدنا إبراهيم العبودية فكان لله فى صدق ، فكان الله له استجابة ورعاية، وعناية وتوفيقًا.

جاهد إبراهيم عليه السلام فى سبيل الله ما شاء الله له أن يجاهد وأخذت السنون تمضى فإذا به يرى الشعيرات البيضاء تتناثر فى رأسه وفى لحيته، ويسأل عن مغزاها فيقال له: إنها علامة الوقار، فيقول اللهم زدنى وقارًا.

وانتهت به الحياة كما تنتهى بكل مخلوق، انتهت به راضيًا عن ربه، مرضيًا عنه من ربه، انتهت به الحياة، وقد تجاوز المائة عام بكثير، أمضاها كلها فى عمل دائب فى سبيل الله، وتولى دفنه ابناه اسماعيل واسحاق صلوات الله عليهم أجمعين.

يقول الإمام ابن كثير:

فقبره وقبر ولده اسحاق وقبر ولد ولده يعقوب فى المربعة التى بناها سليمان بن داود عليه السلام، ببلد حبرون، وهو البلد المعروف بالخليل اليوم.

وهذا متلقى بالتواتر أمة بعد أمة، وجيلًا بعد جيل، من زمن بنى إسرائيل وإلى زماننا هذا، إن قبره بالمربعة تحقيقًا. فأما تعيينه منها فليس فيه خبر صحيح معصوم فينبغى أن تراعى تلك المحلة وأن تحترم احترام مثلها، وأن تبجل وأن تجل أن يداس فى أرجائها، خشية أن يكون قبر الخليل أو أحد أولاده الأنبياء عليهم السلام تحتها.

ويروى أنه وجد عند قبره هذه الأبيات السهلة الجميلة العميقة المغزى:

إلهى جهولًا أمله ... بموت من جا أجله
ومن دنا من حتفه ... لم تغن عنه حيله
وكيف يبقى آخرًا ... من مات عنه أوله
والمرء لا يصحبه ... فى القبر إلا عمله

وخير ما يمكن أن يتأتى تقديرًا لحياة سيدنا إبراهيم إنما هو قول الله تعالى:

﴿ولقد اصطفيناه فى الدنيا، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين﴾.

وإن للسادة الصوفية شرحًا جميلًا لكلمة «الصالحين» حينما ترد فى مثل هذه المقامات:

إنهم يقولون: الصالحون للحضرة الإلٰهية، فيكون معنى الآية الكريمة: وانه فى الآخرة لمن الصالحين، لحضرتنا.

ولقد أتت عدة أوصاف لإبراهيم عليه السلام فى القرآن الكريم نذكر منها: أنه كان مسلمًا: أى أسلم وجهه لله وأخلص له العبادة.

وأنه كان أمة: والأمة والجماعة من كان على الحق ولو كان وحده فهو قدوة يقتدى بها فى الحق، وهو إمام.

وأنه كان قانتًا: والقانت هو الخاضع الخاشع.

وأنه كان حنيفًا: والحنيف هو الذى لا ينحرف ولا يميل ميل نزعات، أو ميل شرك.

وأنه كان حليمًا.

وأنه كان أوّاهًا: والأواه كثير التأوه، وذلك يعنى رقة القلب.

وأنه كان منيبًا: والمنيب هو الراجع إلى الله فى كل أموره.

كان شاكرًا لأنعم الله، أى قائمًا بشكر الله على نعمه التى لا تحصى.

وأنه فى النهاية كان خليل الله. يقول سبحانه: واتخذ الله إبراهيم خليلًا.

ولقد امتد أثر سيدنا ابراهيم حتى وصل فى الجزيرة العربية إلى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام. لقد كان فى الجزيرة العربية أريج طيب لا يزال باقيًا ينبعث شذاه أثناء العصر الجاهلى، إنه أثر الدين، الدين الذى بشر به إبراهيم عليه السلام.

وكان فيها عبير زكى من الخلق الكريم ممثلا فى هذا، أو فى ذاك، ممن يمكن أن نسميهم «الإبراهيميون».

والإبراهيميون هم هؤلاء الذين يسمون «الحنفاء» وهى تسمية تطلق على كل من كان يبحث عن دين ابراهيم ويتبعه، وكانوا متناثرين فى الجزيرة العربية هنا وهناك تجمعهم غاية واحدة هى البحث عن دين ابراهيم، وكان من أنبه هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل، وكان الخطاب - والد سيدنا عمر - أخاه لأمه.

وتبدأ قصة زيد مع دين إبراهيم على الكيفية التالية:

اجتمع زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وعثمان ابن الحويرث، وعبدالله بن جحش فى عيد لقريش عند وثن لهم كانوا يذبحون عنده الذبائح، فلما اجتمع القرشيون وبدأوا ينحرون الذبائح ويشربون ويلهون، انفرد زيد وصحبه وقال بعضهم لبعض:

تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض.

فلما أعطوا المواثيق والعهود على الصدق والإخلاص والكتمان قال قائلهم: تعلمن والله ما قولكم على شيء، لقد أخطأوا دين ابراهيم وخالفوه .. ما وثن يعبد لا يضر ولا ينفع؟ فابتغوا لأنفسكم..

والتزموا فيما بينهم أن يبحث كل ما استطاع عن دين ابراهيم، وأن يخبر كل واحد منهم الآخرين بما أدى إليه بحثه.

يقول كتاب السير عن هؤلاء مقارنين بينهم:

ولم يكن فيهم أعدل أمرًا، وأعدل ثباتًا، من زيد بن عمرو بن نفيل.

وبدأ هؤلاء الأربعة باعتزال الأوثان وفارقوا الأديان من اليهود والنصارى والملل كلها بحثًا عن دين ابراهيم، أو - بتعبير آخر - بحثًا عن الحقيقة: والحنيفية هى دين ابراهيم. اعتزل زيد دين قومه وكان لابد له بسبب ذلك من أن ينطوى على نفسه نوعًا ما ، فلما اعتزلهم وما يعبدون شق عليهم ذلك واعتبروه إهانة لهم أن يعتزل آلهتهم وكان أشدهم عداوة له وايذاء هو أخوه لأمه: الخطاب.

لقد آذاه الخطاب كثيرًا حتى لقد أخرجه إلى أعلى مكة، ووكل به شبابًا من قريش، وسفهاء من سفهائهم وأمرهم أن يمنعوه من دخول مكة مخافة أن يفسد عليهم دينهم، أو يتابعه أحد على ما هو عليه.

وحال الشبان بينه وبين مكة فكان لا يدخلها إلا سرًّا فإذا علموا به

أخرجوه ونالوا منه الإيذاء.. ولكن الإيذاء لم يفت من عضده ويوهن عزيمته.. كلا.

آذت قريش زيد بن عمرو، وكان الخطاب أشدهم فى ذلك ، وصمد زيد، وقد كان يرجو أن يجد فى زوجته المعين، وقد عز المعين، والنصير، حيث عز النصير ولكنها كانت مثل امرأة نوح، عونًا لأعدائه ونصيرًا لهم.

لقد كانت عينًا للخطاب عليه، ولكن ذلك كله لم يصرفه عن البحث عن الحق . وها هو ذا يغادر مكة طلبًا للحق: فقد خرج إلى الشام يلتمس ويطلب فى أهل الكتاب الأول دين ابراهيم، وسأل عنه.

ولم يزل فى ذلك حتى أتى الموصل والجزيرة كلها، ثم أقبل حتى أتى الشام، فجال فيها حتى أتى راهبًا ببيعة من أرض البلقاء كان ينتهى إليه – كما تذكر كتب السير – علم النصرانية فيما يزعمون فسأله عن الحنيفية.. دين إبراهيم.

فقال له الراهب: إنك لتسأل عن دين ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم، لقد درس من علمه وذهب من كان يعرفه ولكنه قد أظل خروج نبى وهذا زمانه.

وفرح زيد حين علم أنه فى زمن يخرج فيه نبى يهدى إلى الحق، ولكنه مع ذلك لم ييأس من الوصول إلى دين إبراهيم فى انتظار النبى الجديد.

وكان كلما سمع براهب عالم أو حَبْر ضليع يمم شطره يسأل عن دين

ابراهيم، وكانت إجابتهم تقريبًا واحدة، فقد قال له راهب آخر:

أراك تريد دين ابراهيم يا أخا مكة، إنك لتطلب دينًا ما يوجد اليوم أحد يدين به وهو دين أبيك ابراهيم: كان حنيفًا، لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا، كان يصلى ويسجد إلى هذا البيت الذى ببلادك، فالحق ببلدك فإن الله يبعث من قومك فى بلدك من يأتى لدين ابراهيم: الحنيفية، وهو أكرم الخلق على الله.

ورغم ذلك ما وهن لزيد عزم، ولا فترت له همة.

وفى يوم من الأيام رأته أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما مسندًا ظهره إلى الكعبة يقول:

يا معشر قريش، والذى نفس زيد بيده، ما أصبح أحد منكم على دين ابراهيم غيرى.

ماذا كانت عقيدته؟ ما الذى وصل إليه؟ ما هى ثمرة أبحاثه وسياحاته؟

لقد وصل حقًا إلى جوهر عقيدة ابراهيم عليه السلام.

وهذا الجوهر هو إسلام الوجه لله، لقد نظر زيد إلى الكون فوجده محكومًا بنواميس لا تتخلف، ووجد أن هذه النواميس رتبت بحكمة حكيمة، وبتدبير متقن لا حظ فيها للمصادفة، فعلم أنها استجابة للحكيم

الذى أحكمها وطاعة للخبير الذى فصلها، لقد أسلمت الأرض فكانت حسبما أراد الخالق سبحانه فما له لا يسلم هو؟

انظر اليه يقول:

وأسلمت وجهى لمن أسلمت له الأرض تحمل صخرًا ثقالا
ودحاها فلما استوت شدها سواء وأرسى عليها الجبالا

ولقد أسلمت السحاب حاملة المياه العذبة فماله لا يسلم هو؟

ويعبر عن ذلك قائلًا:

وأسلمت وجهى لمن أسلمت له المزن تحمل عذبًا زلالا
إذا هى سيقت إلى بلدة أطاعت فصبت عليها سجالاً

ولقد أسلمت الريح فما له لا يسلم هو؟ ويصوغ ذلك فى قوله:

وأسلمت وجهى لمن أسلمت له الريح تصرف حالاً فحالاً

كل شىء فى الكون استجاب فما له لا يستجيب؟ والاستجابة هى الإسلام الذى هو جوهر العقيدة الإبراهيمية، وقد أسلم زيد فحقق بذلك جوهر العقيدة الإبراهيمية. بيد أن هذا الجوهر لا يغنى عن ذكر شىء من التفاصيل.

لقد أسلم زيد بن عمرو وجهه لله تعالى، ومن أول الواجبات نحو هذه العقيدة أن لا يشرك الإنسان بربه غيره فى العبادة.

ومن أجل ذلك أعلن زيد بن عمرو فى شعره أنه اعتزل عبادة الأصنام إنه يقول:

عزلت اللات والعزى جميعًا كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى أدين ولا ابنتيها ولا صنمى بنى عمرو أزور

يقول محمد بن اسحاق: وكان زيد بن عمرو قد ترك عبادة الأوثان وفارق دينهم، وألزمته عقيدة إسلام الوجه لله أن لا يأكل مما ذبح للأصنام، أو باسم الأصنام وكان لا يأكل إلا ما ذبح على اسم الله وحده.

قال موسى بن عقبة:

سمعت من أرضى يحدث عن زيد بن عمرو أنه كان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول:

الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء، وأنبت لها من الأرض، لم تذبحونها على غير اسم الله؟ إنكارًا لذلك وإعظامًا له.

ويروى بعض من رأى زيدًا عند عودته من الشام أنه كان يراقب الشمس حتى إذا زالت: استقبل الكعبة فصلى ركعة - سجدتين - ثم يقول:

هذه قبلة ابراهيم واسماعيل، لا أعبد حجرًا، ولا أصلى له، ولا آكل ما ذبح له، ولا أستقسم بالأزلام، وانما أصلى لهذا البيت حتى أموت.

وكان زيد يحج فيقف بعرفة ويلبى قائلاً:

لبيك لا شريك لك، ولاند لك.

ثم يندفع من عرفة ماشيًا وهو يقول:

لبيك متعبدًا مرموقًا.

وحجة هذا، وكلماته تلك فى حجه، من أجمل المظاهر لإسلام وجهه لله من كلماته فى هذا المجال أيضًا: لبيك حقًّا حقًّا، تعبدًا ورقًّا.

وكان يقول فى ذلك أيضًا:

أمنت بما آمن به ابراهيم، وهو يقول: أنفى لك عان راغم، مهما تجشمنى فإنى جاشم، ثم يخر فيسجد.

ولقد شغل زيد نفسه أيضًا بالجانب الأخلاقى فى مكة: لقد كان يأتى للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته - وكانت العرب تفعل ذلك - فيقول له: لا تقتلها، ادفعها إلى أكفلها فإذا ترعرعت فخذها إن شئت.

وروى الإمام البخارى أن زيدًا كان يحيى الموءودة: يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته لا تقتلها، أنا أكفيك مؤنها، فيأخذها، فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك مؤنتها.

كانت جلسة زيد بن عمرو بن نفيل المفضلة هى أن يجلس مسندًا ظهره إلى الكعبة متحدثًا إلى المقبل والمدبر بالطيّب من القول وبالكريم

من الأخلاق. فإذا سأله سائل: لمَ العبادة؟ ولِمَ التقوى؟ ولِمَ العمل الصالح؟ فإنه يقول:

ولكن أعبد الرحمن ربى ليغفر ذنبى الرب الغفور
فتقوى الله ربكم احفظوها متى ما تحفظوها لا تبور
ترى الابرار دارهم جنان وللكفار حامية سعير
وخزى فى الحياة وأن يموتوا يلاقوا ما تضيق به الصدور

وأحيانًا يتخذ الموت واعظًا ويذكر من يمر به عن طريق غير مباشر بأن الموت مصيره كما هو مصير كل مخلوق وأن الحكمة كل الحكمة هى أن يتجنب الإنسان فعل الشر فيقول:

عجبت وفى الليالى معجبات وفى الأيام يعرفها البصير
بأن الله قد أفنى رجالاً كثيرًا كان شأنهم الفجور

ولكنه يعجل فيقول: إنه اذا عثر الإنسان فأتى الآثام فإن باب التوبة مفتوح:

وبينا المرء يعثر ثاب يومًا كما يتروح الغصن النضير

ويتحدث عن عاقبة الآثام فى هذه الحياة الدنيا، تقول السيدة أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها:

سمعت زيد بن عمرو بن نفيل وهو مسند ظهره إلى الكعبة يقول:

يامعشر قريش، إياكم والزنى فإنه يورث الفقر.

وخلص زيد إلى التوحيد الحق، وإلى الإخلاص المخلص، وهو يعبر عن ذلك بقوله:

إلى الله أهدى مدحتى وثنائيا وقولاً رضيا لا ينى الدهر باقيا
إلى الملك الأعلى الذى ليس فوقه إلٰـه ولا رب يكون مـدانيَا

ولقد أثارت حالته هذه اهتمام بعض علماء الكلام من قديم الزمان، وهم من أجل ذلك يذكرونه، عند تعريفهم للنبى صلى الله عليه وسلم. ويتساءلون: أهو خارج عن التعريف أم داخل فيه:

يقول الجلال الدوانى فى تعريف النبى صلى الله عليه وسلم:

هو إنسان بعثه الله تعالى إلى الخلق لتبليغ ما أوحاه إليه.

وعلى هذا لا يشمل من أوحى إليه ما يحتاج إليه لكماله فى نفسه من غير أن يكون مبعوثًا إلى غيره كما قيل فى زيد بن عمرو بن نفيل، اللهم إلا أن يتكلف.

ولقد كان سعيد بن المسيب يذكر زيدًا فيقول:

توفى وقريش تبنى الكعبة قبل أن ينزل الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس سنين. ولقد نزل به وإنه ليقول: أنا على دين ابراهيم، فأسلم ابنه سعيد بن زيد واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتى عمر

ابن الخطاب وسعيد بن زيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألاه عن زيد بن عمرو بن نفيل، فقال: غفر الله له ورحمه فإنه مات على دين إبراهيم.

قال فكان المسلمون بعد ذلك اليوم لا يذكره ذاكر منهم إلا ترحم عليه واستغفر له، ثم يقول سعيد بن المسيب: رحمه الله وغفر له.

obeikandl.com